

للامام تقى الدين أحمد بن على المقريزى

المتوفى سنة ٨٥٤ هجرية

علق عليه وصحح أصوله الأستاذ

طه محمد الزينى

من علماء الأزهر



الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على رسوله الأمين .

﴿ وبعد ﴾ فهـذا الـكتاب « تجريد التوحيد المفيد » من أنفس الـكتب فى تخليص التوحيد ممـا شابه من البدع والخرافات التى قد تذهب بأصل التوحيـد وتؤدى بالمبتدع إلى الـكفر أو إلى عدم كمال توحيده لله جل وعز ، ومعنى تجريد التوحيد . تخليص التوحيد وجعله مجردا ممـا يشوبه من عوامل الإشراك فى محبة الله وربوبيته ، وقد أفصح الشيخ المقريزى عن كل مايهم المسلم من أمر التوحيد وبين الطريق المستقيم التى ينبغى أن يسلكها الموحد وتعرض للشبه الـكثيرة التى تجول بأذهان الناس وتفسـد عليهم أمر دينهم ، وبين كثيراً من أفعال الناس المنافية للحق والتى جرهم إليها اتباع أهوائهم من محاولة تشبيه الخالق بالمخلوق والتقرب اليه ببعض خلقه من الأحيـاء والأموات ، وذكر كثيراً من مذاهب الفرق الإسلامية التى اختلط عليها النهج القويم فى الدين وبين مبعث ضلالها ، وفساد اعتقادها وعملها ، ورسم المحجة الواضحة وبين معالمها وأوضح للسالك فيهـا منعطفاتها ، وأضاء ظلماتها بالدليل الملزم والبرهان الساطع ، ومع أنه عاش قبل زماننا بنحو خمس مائة سنة فكأنه يعيش بين ظهرانينا ،

فهو يسرد أقوال المبتدعين فى زمانه فإذا هى مطابقة لأقوال الجهلة والمخرفين وعباد الخالق وأحلاس القبور فى زماننا ، مما يظهر أن الفساد قديم ، وأن الداء قد دخل جسم الأمة الإسلامية وأخذت ميكروباته تنهش فيه حتى استفحل وعز دواؤه ، وأعتقد أن سبب استشراء هذا الداء عدم التفات الحكومات الإسلامية إليه وانصرافها إلى أمور السياسة وانغماسها فى الدنيا ، حتى إن بعض الحكومات شجعت اختلاف رعاياها ونصرت بعض طوائفها على بعض وهى تعلم أنها تنصر الباطل وتحارب الحق ، فضلت وأضلت وابتعدت عن الله وجانبت سبيله ، ولا يمكن علاج هذا الأمر إلا برجوع الحكومات الإسلامية إلى الصواب والضرب على أيدى المبتدعين والمخرفين والمتكسبين بالدين ، فالناس على دين ملوكهم ورؤسائهم وقد قال الرسول ﷺ « إن الله يزع بالسلطان أكثر مما يزع بالقرآن » فلا بد من الاحتكام إلى القرآن والحديث ورد كل شىء إلى الله ورسوله كما قال تعالى « فإن تنازعتم فى شىء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر » .

فيجب الوقوف عند حدود الله ، واتباع سنة رسول الله حتى تستعيد الأمة الإسلامية مجدها ، وتعود إلى سابق عهدها نسأل الله أن يوفقنا إلى الاتباع وأن يجنبنا الابتداع وأن يوفق حكامنا إلى ما يحبه ويرضاه إنه سميع الدعاء ؟

طه الزينى

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة المؤلف

الحمد لله رب العالمين ، والعاقبة للمتقين ، وصلى الله على نبينا محمد خاتم النبيين ، وعلى آله وصحبه أجمعين .

أما بعد فهذا كتاب جمّ الفوائد بديع الفرائد ينتفع به من أراد اللهَ والدارَ الآخرة سميته تجريد التوحيد المفيد واللهَ أسأل العون على العمل به بمنه ،

إعلم أن الله سبحانه هو ربّ كل شيء ومالكه وإلهه : فالرب[1]

---

(١) يطلق الرب على السيد وعلى مالك الشيء وصاحبه ومصلحه ، والرب « بأل » خاص بالله عز وجل ولا يطلق على غيره إلا نادرا وجمعه أرباب وربوب ؛ ومن إطلاق الرب بمعنى السيد ما ورد فى قوله تعالى على لسان يوسف عليه السلام « وقال للذى ظن أنه ناج منهما اذكرنى عند ربك » أى عند سيدك وهو الملك ، ومن إطلاقه بمعنى المالك للشيء وصاحبه ، ما ورد على لسان عبد المطلب بن هاشم جد الرسول صلى الله عليه وسلم فى قوله لأبرهة صاحب الفيل « أما الإبل فأنا ربها وأما البيت فله رب يحميه » أى أنا مالك الإبل والبيت له صاحب يقدر على حمايته منكم ، ومن اطلاق الرب على الله عز وجل ما ورد فى قوله تعالى على لسان يوسف « قال رب السجن أحب إلى مما يدعوننى إليه » . ويطلق الرب أيضا على المربى والمتكفل بمصالح الشخص ، ويقال

مصدر ربّ يَرُبُّ ربًّا فهو رابّ : فعنى قوله تعالى (ربّ العالمين) رابّ العالمين فان الرب سبحانه وتعالى هو الخالق الموجد لعباده القائم بتربيتهم وإصلاحهم المتكفل بصلاحهم من خلقٍ ورزق وعافية وإصلاح دين ودنيا . والإلهية [1] كون العباد يتخذونه سبحانه محبوباً مألوهاً ويفردونه بالحب والخوف والرجاء والاخبات [2] والتوبة والنذر [3] والطاعة والطلب والتوكل [4] ونحو هذه الأشياء فان التوحيد

= ربّ الصبي أي رباه حتى أدرك مثل ربّبه ، وقد بين الشيخ تقي الدين صاحب هذا الكتاب معنى التربية والتكفل بالمصالح بالنسبة لله سبحانه وتعالى .

(١) يقال أَلَهَ إلاهة وألوهة وألوهية بمعنى عبد عبادة ، ومن ذلك لفظ الجلالة وهو الله أصله إله بوزن كتاب بمعنى مألوه أي معبود .

(٢) الإخبات الخضوع لله وتسليم الأمر إليه .

(٣) النذر هو التزام فعل القربات وهو خاص بالله تعالى لا يجوز النذر لغيره ، فلا يجوز أن تقول لفلان عليّ ذبح خروف للفقراء أو صيام يوم أو أيام ، أو حج بيت الله أو التصدق بكذا من النقود ، وإنما ذلك خاص بالله تعالى ، فتقول لله علي كذ وكذا ومن الجهل بالدين المؤدى إلى الكفر إذا كان قائله يعتقد أن ما يقول هو الدين ، قول العوام فى هذه الأيام « نذر عليّ ياسيدى يا بدوى إن شفى الله مريضى أو إن كسبت القضية أو إن قضيت حاجتى أن أزورك وأذبح عندك عجلا أو خروفا أو أوزع على جلساء مسجدك كذا وكذا من النقود أو الأشياء النافعة » فيجب أن يمتنع الناس عن ذلك ويجعلوا النذر لله فقط ، فيقول القائل لله على كذا وكذا خالصا لوجهه دون غيره .

(٤) يجب أن يكون التوكل وهو الاعتماد فى تحقيق الأمور على الله وحده ومن الجهل ما يقوله الناس فى هذه الأيام مثل « أنا معتمد على

حقيقته أن ترى الأمور كلها من الله تعالى رؤية تقطع الالتفات إلى الأسباب والوسائط فلا ترى الخير والشر إلا منه تعالى وهذا المقام يثمر التوكل وترك شكاية [1] الخلق وترك لومهم والرضا عن الله تعالى والتسليم لحكمه :

وإذا عرفت ذلك فاعلم أن الربوبية منه تعالى لعباده والتأله من عباده له سبحانه كما أن الرحمة هي الوصلة بينهم وبينه عزوجل ٭ واعلم أن أنفس الأعمال وأجلها قدراً توحيد الله تعالى غير أن التوحيد له قشران [2] ٭ الأول أن تقول بلسانك لا إله إلا الله ويسمى هـذا

الله وعليك ، وأنا معتمـــد عليك بعد الله ، فيجب أن يكون الاعتماد على الله فقط .

(١) يريد الشيخ بترك الشكاية ترك مايقوله قليل الرزق مثلا من أنه يستحق الاتساع فى الرزق لأنه صافى الضمير يحب الخير للناس ولا يفعل إلا الخير ، فالله أعلم به وبما يستحق ، وهذا اعتراض على فعل الله ولوم له على تدبيره ولا يليق بالمؤمن الحق ، بل يجب عليه التسليم والرضى كل الرضى بما قدر الله وقسمه ، ولكن عليه أن يأخذ فى الأسباب التى توسع رزقه وتقضى مصالحه سواء جاءت بنتيجة أو لم تأت ، ولا بأس بالعمل والدأب والاجتهاد ، ولا يعترض بعد ذلك على المقادير .

(٢) القشر هو ما يغطى اللباب ، فى الفاكهة مثلا القشر يغطى الثمرة والقشر قليل الفائدة والثمرة هى كل المطلوب ، فشبه الشيخ المقزيرى قول « لاإله الا الله » وموافقة القلب على هـــذا القول . بالقشر قليل الفائدة بالنسبة إلى لب التوحيد ، وشبه رؤية الأمور كلها من الله وعدم الالتفات الى غيره والإقرار له بالعبادة ، بالثمرة . وهو تشبيه جميل أظهر المعنى الذى أراده غاية الظهور .

القول توحيداً وهو مناقض للتثليث الذى تعتقده النصارى وهذا التوحيد يصدر أيضاً من المنافق الذى يخالف سره جهره ٭ والقشر الثانى أن لايكون فى القلب مخالفة ولا انكار لمفهوم هذا القول بل يشتمل القلب على اعتقاد ذلك والتصديق به وهذا هو توحيد عامة الناس ٭ ولباب التوحيد أن يرى الأمور كلها لله تعالى ثم يقطع الالتفات إلى الوسائط وأن يعبده سبحانه عبادة يفرده بها ولا يعبد غيره : ويخرج عن هذا التوحيد اتباع الهوى فكل من اتبع هواه فقد اتخذ هواه معبوده : قال الله تعالى (أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ)

وإذا تأملت عرفت أن عابد الصنم لم يعبده إنما عبد هواه وهو ميل نفسه إلى دين آبائه فيتبع ذلك الميل : وميل النفس إلى المألوفات أحد المعانى التى يعبر عنها بالهوى : ويخرج عن هذا التوحيد السخط على الخلق والالتفات اليهم فان من يرى الكل من الله كيف يسخط على غيره أو يأمل سواه : وهذا التوحيد مقام الصديقين ولا ريب أن توحيد الربوبية لم ينكره المشركون بل أقروا بأنه سبحانه وحده خالقهم وخالق السموات والأرض والقائم بمصالح العالم كله وإنما أنكروا توحيد الإلهية [1] والمحبة كما قد حكى الله تعالى عنهم فى قوله (وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ) فلما سووا غيره به فى هذا التوحيد كانوا مشركين

---

(١) أى إفراده بالعبادة والحب والخوف والرجاء والنذر والتوكل وغير ذلك مما تقدم .

كما قال الله تعالى (الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ[1]) وقد علم الله سبحانه وتعالى عباده كيفية مباينة الشرك فى توحيد الالهية وانه تعالى حقيق بإفراده وليا[2] وحكما وربا فقال تعالى (قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا) وقال (أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا) وقال (قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا) فلا ولىّ ولا حكم ولا ربّ إلا الله الذى من عدل به غيره فقد أشرك فى ألوهيته ولو وحد ربوبيته فتوحيد الربوبية هو الذى اجتمعت فيه الخلائق مؤمنها وكافرها وتوحيد الالهية مفرق الطرق بين المؤمنين والمشركين ولهذا كانت كلمة الإسلام لا إله إلا الله ولو قال لا رب إلا الله اجزأه عند المحققين . فتوحيد الألوهية هو المطلوب من العباد ولهذا كان أصل الله الإله كما هو قول سيبويه وهو الصحيح وهو قول جمهور أصحابه إلا من شذ منهم :

وبهذا الاعتبار الذى قررنا به الإله وأنه المحبوب لاجتماع صفات الكمال فيه كان الله هو الاسم الجامع لجميع معانى الأسماء الحسنى والصفات العليا وهو الذى ينكره المشركون ويحتج الرب سبحانه وتعالى عليهم بتوحيدهم ربوبيته على توحيد ألوهيته كما قال الله تعالى (قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ

---

(١) أى يسوون غيرربهم بربهم فى قصده فى الأمور وحبه .

(٢) أى يتولاه الناس فى أمورهم كلها ويحكمونه فى شئونهم وفيما شجر بينهم ، ويعتقدون أنه خالقهم ورازقهم وجالب الخير لهم ومانع الضر عنهم .

وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى آللهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَهٌ مَعَ اللهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ) وكلما ذكر تعالى من آياته جملة من الجمل قال عقبها أإله مع الله فابان سبحانه وتعالى بذلك أن المشركين إنما كانوا يتوقفون فى إثبات توحيد الالهية لا الربوبية، على أن منهم من اشرك فى الربوبية كما يأتى بعد ذلك إن شاء الله تعالى : وبالجملة فهو تعالى يحتج على منكرى الإلهية بإثباتهم الربوبية : والملك هو الآمر الناهى الذى لايخلق خلقا بمقتضى ربوبيته ويتركهم سدى معطلين لايؤمرون ولا ينهون ولا يثابون ولا يعاقبون فان الملك هو الآمر الناهى المعطى المانع الضار النافع المثيب المعاقب ولذلك جاءت الاستعاذة فى سورة الناس وسورة الفلق بالأسماء الحسنى الثلاثة الرب والملك والإله ، فانه لما قال (قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ) كان فيه إثبات أنه خالقهم وفاطرهم فبقى أن يقال لمّا خلقهم هل كلفهم وأمرهم ونهاهم قيل نعم فجاء (مَلِكِ النَّاسِ) فاثبت الخلق والأمر ألا له الخلق والأمر فلما قيل ذلك قيل فاذا كان ربا موجدا وملكا مكلفا فهل يحب ويرغب اليه ويكون التوجه اليه غاية الخلق والأمر قيل (إِلَهِ النَّاسِ) أى مألوههم ومحبوبهم الذى لايتوجه العبد المخلوق المكلف العابد إلا له فجاءت الإلهية خاتمة وغاية وما قبلها كالتوطئة لها وهاتان السورتان أعظم عوذة [1] فى القرآن وجاءت الاستعاذة بهما

---

(١) يقال عاذ به يعوذ عوذاً وعياذاً بمعنى لاذ به ولجأ اليه واستجار به ،

وقت الحاجة إلى ذلك وهو حين سحر النبي ﷺ وخيل اليه أنه يفعل الشيء ﷺ وما فعله وأقام على ذلك أربعين يوما كما في الصحيح [1]

= ويقال استعاذ يستعيذ استعاذة أي طلب العوذ ، والعوذة مصدر عاذ يعوذ مراداً به المرة من اللجوء والاستجارة .

(١) هو في الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها « سحر النبي ﷺ رجل من بني زريق يقال له لبيد بن الأعصم حتى كان رسول الله ﷺ يخيل إليه أنه كان يفعل الشيء وما فعـــله حتى اذا كان ذات يوم أو ذات ليـلة وهو عندي دعا ودعا ثم قال ياعائشة أشعرت أن الله أفتاني فيما استفتيته فيه أتاني رجلان فقعد أحدهما عند رأسي والآخر عند رجلي فقال أحدهما لصاحبه ما وجع الرجل فقال مطبوب قال من طبه قال لبيد بن الأعصم قال في أي شيء قال ؟ في مشط ومشاطة وجف طلع نخلة ذكر قال وأين هو قال في بئر ذروان فأتاها رسول الله ﷺ في ناس من أصحابه فجاء فقال ياعائشة كأن ماءها نقاعة الحناء أو كأن رؤوس نخلها رؤوس الشياطين قلت يارسول الله أفلا استخرجته قال قد عافاني الله فكرهت أن أثير على الناس فيه شرا فأمر بها فدفنت » هذا لفظ البخاري . والمطبوب ، المرض وطبه أي أمرضه بسبب السحر ، والمشط آلة تسريح الشعر ، والمشاطة مايتساقط من الشعر عند التسريح وطلع النخلة الذكر هو المسمى عند الناس في أيامنا هذه «الدكار» وقد جمع لبيد بن الأعصم هـذه الأشياء وعقد عليها عقدا ، وعند كل عقدة يقول شيئا من كلام السحر يريد أن يمرض الرسول ﷺ ، وفي زماننا هذا بقية من السحر ، يفرق به الساحر بين المرء وزوجه وبين الأخ وأخيه وهذا من الكبائر تجب محاربته من الناس ومن الحكومة حتى يبتعد الأشرار عنه ويأمن الناس في حياتهم . وقد اختلف العلماء في سحر النبي ﷺ قديما وحديثا فذهب الجمهور الى جواز ذلك ووقوعه وأنه لا يخالف العصمة

فلا ينافى الحديث قوله تعالى (والله يعصمك من الناس) لأن سحر النبى ﷺ كان من جنس ما كان يعتريه ﷺ عليه وآله وسلم من الأسقام والأوجاع وهو مرض من الأمراض وإصابته به كإصابته بالسم لافرق بينهما يدل له قوله ﷺ فى آخر الحديث «قدعافانى الله» قال بن القيم فى الهدى قال القاضى عياض والسحر مرض من الأمراض وعارض من العلل يجوز عليه ﷺ كانواع الأمراض مما لاينكر ولا يقدح فى نبوته وأما كونه يخيل اليه أنه فعل الشيء ولم يفعله فليس فى هذا ما يدخل عليه داخلة فى شيء من صدقه لقيام الدليل والاجماع على عصمته من هذا وإنما هذا فيما يجوز طروه عليه فى أمر دنياه التى لم يبعث لسببها ولا فضـــل من أجلها وهو فيها عرضة للآفات كسائر البشر فغير بعيد أنه يخيل اليه من أمورها ما لا حقيقة له ثم ينجلى عنه كما كان: فكان غاية هذا السحر فيه ﷺ إنما هو فى جسده وظاهر جوارحه لافى عقله وقلبه ولذلك لم يكن يعتقد صحة مايخيل اليه بل يعلم أنه خيال لا حقيقة له: ومثل هذا قد يحدث من بعض الأمراض: وقد ذهب طائفة من المتقدمين الى أنه لايجوز ذلك عليه ﷺ وان هذا نقص فى حقه ﷺ وعيب وهو ينافى قوله تعالى (والله يعصمك من الناس) ومن المتاخرين الشيخ محمد عبده المصرى وقد أطنب القول فى رد سحر النبى ﷺ ونفيه فى تفسيره جزء عم: وحاصل كلامه فيه: ولا يخفى أن تأثير السحر فى نفسه عليـه السلام حتى يصـل به الأمر ال أن يظن أنه يفعل شيئا وهو لا يفعله ليس من قبيل تأثير الأمراض فى الأبدان ولا من قبيل عروض السهو والنسيان فى بعض الأمور العادية بل هو ماس بالعقل آخذ بالروح وهو مما يصدق قول المشركين فيه (ان تتبعون إلا رجلا مسحورا) وليس المسحور عندهم الا من خولط فى عقله وخيل اليه أن شيئا يقع وهو لا يقع فيخيل اليه أنه يوحى اليه ولا يوحى اليه: والذى يجب اعتقاده أن القرآن مقطوع به وأنه كتاب الله بالتواتر عن المعصوم ﷺ فهو الذى

وكانت عقد السحر إحدى عشرة عقدة فانزل الله المعوّذتين إحدى عشرة آية فانحلت بكل آية عقدة وتعلقت الاستعاذة في أوائل القرآن[1]

= يجب الاعتقاد بما يثبته وعدم الاعتقاد بما ينفيه وقد جاء بنفي السحر عنه عليه السلام حيث نسب القول باثبات حصول السحر له الى المشركين أعدائه ووبخهم على زعمهم هذا فاذاً هو ليس بمسحور قطعاً : وأما الحديث فعلى فرض صحته آحاد والآحاد لا يؤخذ بها في باب العقائد : وعصمة النبي ﷺ في تأثير السحر في عقله عقيدة من العقائد لا يؤخذ في نفيها عنه الا باليقين ولا يجوز أن يؤخذ فيها بالظن والمظنون على أن الحديث الذي يصل الينا من طريق الآحاد إنما يحصل الظن عند من صح عنده أما من قامت له الأدلة على أنه غير صحيح فلا تقوم به عليه حجة : وعلى أي حال فلنا بل علينا أن نفوض الأمر في الحديث ولا نحكمه في عقيدتنا ونأخذ بنص الكتاب وبدليل العقل فانه اذا خولط النبي صلى الله عليه وآله وسلم في عقله كما زعموا جاز عليه أن يظن أنه بلغ شيئاً وهو لم يبلغه وأن شيئاً نزل عليه ولم ينزل عليه والأمر ظاهر لا يحتاج الى بيان اه : والمسألة في ذاتها محل بحث وقد ترك كثير من المنتسبين الى المذاهب الأخذ ببعض الأحاديث التي وردت في صحيح البخاري أو مسلم أو غيرهما لقول إمام لهم في المذاهب أو لمخالفتها القياس فما هنا أولى لدفع شبه الملحدين وغيرهم وموافقة للقرآن القطعي في ذلك : واذا علمت هذا تعلم أن ما ذهب اليه المصنف هو قول الجمهور : والله أعلم .

(1) هو قول القارىء قبل قراءة القرآن « أعوذ بالله من الشيطان الرجيم » وقد علم الله تعالى رسوله الاستعاذة بقوله « فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم » فلم يقل فاستعذ بالرب ولا استعذ بملك الناس .

باسمه الاله وهو المعبود وحده لاجتماع صفات الكمال فيه ومناجاة العبد لهذا الاله الكامل ذى الأسماء الحسنى والصفات العليا المرغوب اليه فى أن يعيذ [١] عبده الذى يناجيه بكلامه من الشيطان الحائل بينه وبين مناجاة ربه ثم استحب التعليق [٢] باسم الاله فى جميع المواطن الذى يقال فيها (أَعُوذُ بِاللّٰهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ) لأن اسم الله تعالى هو الغاية للأسماء ولهذا كان كل اسم بعده لايتعرّف إلا به فتقول الله هو السلام المؤمن المهيمن فالجلالة تعرّف غيرها وغيرها لايعرّفها : والذين أشركوا به تعالى فى الربوبية منهم من أثبت معه خالقا آخروإن لميقولوا إنه إله مكافىء له وهم المشركون ومن ضاهاهم من القدرية[٣] : وربوبيته سبحانه للعالم الربوبية الكاملة المطلقة الشاملة تبطل أقوالهم لأنها تقتضى ربوبيته [٤] لجميع مافيه من الذوات والصفات والحركات والأفعال : وحقيقة قول القدرية المجوسية [٥] أنه تعالى ليس ربا لأفعال الحيوان [٦] ولا تتناولها ربوبيته إذ كيف يتناول مالا يدخل تحت قدرته ومشيئته وخلقه .

---

(١) يجيره ويمنعه من الشيطان .

(٢) التعليق . أى ربط الاستعاذة باسم الله فى قوله تعالى « بالله » .

(٣) القدرية هم الذين يقولون إن العبد يخلق أفعال نفسه وهم قسم من المعتزلة

(٤) أى أنه خالق لجميع ما فى العالم من الذوات الخ

(٥) هذا كناية عن أن المعتزلة مجوس هذه الأمة ، أى كالمجوس فى اشراكهم العبد لله فى خلق أفعاله كما جعل المجوس إلهين للعالم أحدهما خالق للخير والآخر خالق للشر .

(٦) المراد بالحيوان الانسان وغيره مما فيه حياة وله أفعال .

وشرك الأمم كله نوعان شرك فى الالهية وشرك فى الربوبية فالشرك فى الالهية والعبادة هو الغالب على أهل الاشراك وهو شرك عبّاد الأصنام وعباد الملائكة وعبّاد الجن وعباد المشايخ [1] والصالحين الأحياء والأموات الذين قالوا (مَا نَعبُدُهُمْ إلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إلَى اللهِ زُلْفَى [2]) ويشفعوا لنا عنده وينالنا بسبب قربهم من الله وكرامته لهم قرب وكرامة كما هو المعهود فى الدنيا من حصول الكرامة والزلفى لمن يخدم أعوان الملك وأقاربه وخاصته: والكتب الالهية كلها من أولها إلى آخرها تبطل هذ المذهب وترده وتقبح أهله وتنص على أنهم أعداء الله تعالى وجميع الرسل صلوات الله عليهم متفقون على ذلك من أولهم الى آخرهم وما أهلك الله تعالى (من أهلك) من الأمم الا بسبب هذا الشرك ومن أجله: وأصله الشرك فى محبة الله قال تعالى (يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلهِ) فأخبر سبحانه وتعالى أنه من أحب مع الله شيئاً غيره كما يحبه فقد اتخذ ندا [3] من دونه وهذا على أصح

(١) يريد الشيخ بعباد المشايخ والصالحين. الذين يعتقدون أن الأولياء ومن يدانيهم فى الصلاح يستطيعون أن يفعلوا للعبد شيئا فيتقربون الى الله بسبب تقربهم إلى الصالحين سواء كانوا أحياء أو أمواتا.

(٢) الزلفى التقريب، وهذا قول أهل الجاهليه من عباد الأصنام وأصل الأصنام تماثيل لناس صالحين فى الزمان الماضى، اتخذها أهل الشرك تذكارا لهم يذكرهم بأصحابها فصاروا يحجون إليها ويقدمون لها القرابين والهدايا واعتقدوا أنها تنفعهم وتضرهم على مدى الأيام.

(٣) الند هو النظير والمعادل. وقد قال رسول الله ﷺ ما معناه إن من علامات المؤمن الخالص أن يكون الله ورسوله أحب اليه مما سواهما وأن يكره أن يعود فى الكفر كما يكره أن يقذف فى النار.

القولين فى الآية أنهم يحبونهم كما يحبون الله وهذا هو العدل المذكور فى قوله تعالى (ثُمَّ الَّذينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ) والمعنى على أصح القولين أنهم يعدلون به غيره فى العبادة فيسوون بينه وبين غيره فى الحب والعبادة : وكذلك قول المشركين فى النار لأصنامهم (تَاللهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ) ومعلوم قطعاً أن هذه التسوية لم تكن بينهم وبين الله فى كونه ربهم وخالقهم فانهم كانوا كما أخبر الله عنهم مقرين بأن الله تعالى وحده هو ربهم وخالقهم وأن الأرض ومن فيها لله وحده وأنه رب السموات السبع ورب العرش العظيم : وأنه سبحانه وتعالى هو الذى بيده ملكوت كل شيء وهو يجير ولا يجار [1] عليه : وإنما كانت هذه التسوية بينهم وبين الله تعالى فى المحبة والعبادة فمن أحب غير الله تعالى وخافه ورجاه وذل له كما يحب الله تعالى ويخافه ويرجوه : فهذا هو الشرك الذى لا يغفره الله فكيف بمن كان غير الله آثر عنده وأحب اليه وأخوف عنده وهو فى مرضاته أشد سعيا منه فى مرضاة الله فاذا كان المسوى بين الله وبين غيره فى ذلك مشركا فما الظن بهذا فعياذا بالله من أن ينسلخ القلب من التوحيد والإسلام كانسلاخ الحية من قشرها [2] وهو يظن أنه مسلم موحد فهذا أحد أنواع الشرك : والأدلة الدالة على أنه تعالى يجب أن يكون

(١) أى لا يقدر أحد أن يجير أحدا من الله إلا بإذنه بأن يقبل الله شفاعته وذلك خاص بالرسول ﷺ .

(٢) قشر الحية هو جلدها والحية تبدل جلدها فتخرج من الجلد القديم عند تمام الجلد الجديد .

وحده هو المألوه يبطل هذا الشرك ويدحض حجج أهله وهى أكثر من أن يحيط بها إلا الله بل كل ماخلقه الله تعالى فهو آية شاهدة بتوحيده وكذلك كل ما أمر به خلقه وأمره وما فطر عليه عباده وركبه فيهم من القوى شاهد بأنه الله الذى لا إله إلا هو وأن كل معبود سواه باطل وأنه هو الحق المبين تقدس وتعالى :

وواعجبا كيف يعصى الاله أم كيف يجحده الجاحد
ولله فى كل تحريكة وتسكينة أبدآ شاهد
وفى كل شىء له آية تدل على أنه واحد

والنوع الثانى من الشرك ، الشرك به تعالى فى الربوبية كشرك من جعل معه خالقا آخر كالمجوس وغيرهم الذين يقولون بأن للعالم ربين أحدهما خالق الخير يقولون له بلسان الفارسية يزدان [1] والآخر خالق الشر ويقولون له بلسانهم أهرمن : وكالفلاسفة ومن تبعهم الذين يقولون بأنه لم يصدر عنه إلا واحد بسيط وإن مصدر المخلوقات كلها عن العقول والنفوس وإن مصدر هذا العالم عن العقل [2] الفعال فهو رب كل ماتحته ومدبره وهذا شر من شرك عباد الأصنام والمجوس والنصارى وهو أخبث شرك فى العالم إذ يتضمن من

---

(١) وقوله يزدان معناه الله : وقوله أهرمن أى الشيطان .

(٢) يقول الفلاسفة ان الله خلق عقولا عشرة أى خلق أشياء عشرة يسمى أولها العقل الأول والعقل الأول أثر فى غيره من العقول وهذه العقول العشرة تشمل أمور العالم كله خيرها وشرها وتؤثرفيها مع أنها ناشئة عن الله تعالى

التعطيل[1] وجحد الالهية والربوبية واستناد الخلق إلى غيره سبحانه وتعالى مالم يتضمنه شرك أمة من الأمم ؛ وشرك القدرية مختصر[2] من هذا وباب يدخل منه اليه ولهذا شبههم الصحابة رضى الله عنهم بالمجوس كما ثبت عن ابن عمر وابن عباس رضى الله عنهم وقد روى أهل السنن فيهم ذلك مرفوعا أنهم مجوس هذه الأمة[3] وكثيرا مايجتمع

(١) التعطيل : أى تعطيل صفات الله تعالى عن الاشتغال بالتأثير فى المخلوقات على هذا المذهب لأن العقول هى التى تؤثر فى العالم بعد خلقها فكأن الله لا يفعل شيئا وصفاته باقية بدون عمل .

(٢) لأن العبد إذا خلق فعله كانت قدرة الله فى ذلك الوقت معطلة عن التأثير فى أفعاله

(٣) لفظ رواية ابن عمر عند أبى داود وغيره « عن النبى صلى الله عليه وعلى آله وسلم قال القدرية مجوس هذه الأمة إن مرضوا فلا تعودوهم وإن ماتوا فلا تشهدوهم » قال الخطابى فى شرح هذا الحديث فى المعالم إنما جعلهم مجوسا لمضاهاة مذهبهم مذاهب المجوس فى قولهم بالأصلين وهما النور والظلمة يزعمون أن الخير من فعل النور والشر فعل الظلمة وكذلك القدرية يضيفون الخير الى الله والشر الى غيره والله سبحانه وتعالى خالق الخير والشر لا يكون شىء منهما إلا بمشيئته وخلقه الشر شرا فى الحكمة كخلقه الخير خيرا فان الأمرين جميعا مضافان اليه خلقا وإيجادا والى الفاعلين لهما فعلا واكتسابا اه : وقال الحافظ المنذرى هذا منقطع أبى حازم سلمة بن دينار لم يسمع من ابن عمر وقد روى هذا الحديث من طرق عن ابن عمر ليس منها شىء يثبت اه : وقد تعقبه الحافظ ابن حجر وقال هذا الحديث حسنه الترمذى وصححه الحاكم ورجاله من رجال الصحيح : والله أعلم .

الشركان فى العبد وينفرد أحدهما عن الآخر والقرآن الكريم بل الكتب المنزلة من عند الله تعالى كلها مصرحة بالرد على أهل هذا الإشراك كقوله تعالى(إِيَّاكَ نَعْبُدُ) فانه ينفى [1] شرك المحبة والالهية وقوله (وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ) فانه ينفى شرك الخلق والربوبية : فتضمنت هذه الآية تجريد [2] التوحيد لرب العالمين فى العبادة وانه لا يجوز إشراك غيره معه لا فى الأفعال ولا فى الألفاظ ولا فى الإرادات فالشرك به فى الأفعال كالسجود لغيره سبحانه وتعالى : والطواف بغير بيته المحرم : وحلق الرأس عبودية وخضوعا لغيره وتقبيل الأحجار غير الحجر الاسود الذى هو يمينه فى الأرض وتقبيل القبور واستلامها والسجود لها [3] وقد لعن النبى صلى الله عليه وعلى آله وسلم من اتخذ

---

(١) انما استفيد نفى الإشراك بالله من قوله تعالى « إياك نعبد » لأن تقديم المفعول وهو إياك على الفعل يفيد الحصر . أى نعبدك وحدك ولا نعبد غيرك كما تنادى أحد الناس فيفهم أن النداء لغيره فتقول له « إياك ناديت » أى ناديتك أنت لا غيرك .

وكذلك نستفيد تخصيص الاستعانة بالله من تقديم المفعول وهو إياك

(٢) تخليصه من شائبة توحيد غيره .

(٣) أخرج أبو نعيم فى الحلية من حديث فضيل بن عياض قال سمعت عبد الملك بن جريج يقول حدثنى عطاء عن ابن عباس رضى الله عنهما قال قال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم « لا توضع النواصى الا لله تعالى فى حج أو عمرة فما سوى ذلك فمثلة » قال أبو نعيم غريب من حديث الفضيل لم نكتبه الا من هذا الوجه والنواصى جمع ناصية وهى مقدم الرأس والمراد بوضعها السجود ، « والمثلة الشناعة والفظاعة » :

قبور الأنبياء والصالحين مساجد فكيف من اتخذ القبور أوثانا[1] تعبد من دون الله تعالى (إيَّاكَ نَعبُدُ) وفى الصحيح عنه صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال « لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد يحذر ماصنعوا »[2] ، وفيه عنه أيضا « إن من شرار الناس من تدركهم الساعة وهم أحياء والذين يتخذون القبور مساجد »[3] ، وفيه أيضا عنه صلى الله عليه وآله وسلم « إن من كان قبلكم كانوا يتخذون القبور مساجد ألا فلا تتخذوا القبور مساجد فانى أنهاكم عن ذلك » ، وفى مسند الإمام أحمد وصحيح ابن حبان عنه صلى الله عليه وآله وسلم « لعن الله زوارات[4] القبور والمتخذين عليها المساجد والسرج[5] » ، وقال « اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد » ، وقال « إن من كان قبلكم كانوا إذا مات فيهم الرجل الصالح بنوا على قبره مسجدا وصوروا فيه تلك الصور أولئك شرار الخلق عند الله[6] » ، والناس فى هذا

---

(١) الأوثان كالأصنام الا أن الصنم تكون له هيئة كهيئة الناس أو الحيوانات والوثن كل ما عبد من دون الله وليست هيئته كالهيئة السابقة

(٢) رواه الامام أحمد بن حنبل فى مسنده بإسناد جيد عن عبد الله ابن مسعود .

(٣) رواه أيضا أبو داود والنسائى والترمذى عن ابن عباس .

(٤) زوارات جمع زوارة وهى المرأة كثيرة الزيارة للقبور .

(٥) والسرج جمع سراج كالشمع والقناديل والمصابيح الكهربائية مما هو موجود فى زماننا هذا وقبله .

(٦) الحديث فى الصحيحين وغيرهما عن عائشة رضى الله عنها .

الباب أعني زيارة القبور على ثلاثة أقسام . قوم يزورون الموتى فيدعون لهم [1] وهذه الزيارة الشرعية : وقوم يزورونهم يدعون بهم [2] فهؤلاء هم المشركون فى الألوهية [3] والمحبة ، وقوم يزورونهم فيدعونهم [4] أنفسهم وقد قال النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم ، اللهم لا تجعل قبرى وثنا يعبد ، وهؤلاء هم المشركون فى الربوبية وقد حمى النبي ﷺ جانب التوحيد أعظم حماية تحقيقا لقوله تعالى (إِيَّاكَ نَعْبُدُ) حتى نهى عن الصلاة فى هذين الوقتين [5] لكونه ذريعة الى التشبيه بعبّاد الشمس الذين يسجدون لها فى هاتين الحالتين : وسد الذريعة بأن منع من الصلاة بعد العصر [6] والصبح لاتصال هذين الوقتين بالوقتين اللذين

---

(1) السنة عند زيارة القبور أن يقول الزائر السلام عليكم أنتم السابقون ونحن اللاحقون ويدعو للميت بالخير فيقول اللهم اغفر له اللهم ارحمه اللهم تجاوز عن سيئاته وزد فى حسناته ومثل ذلك

(2) أى يتوسلون بهم فى الدعاء كقولهم اللهم بحق هذا البطل أو بكرامة هذا الولى أو الشيخ افعل لى كذا وكذا .

(3) لأنهم يتخذون وسيطا لله ويحبون غيره ويعتقدون أن لغير الله دخلا فى فعل الله . (4) كمن يقول من جهلة المسلمين فى هذا الزمان ياسيدى ابراهيم يادسوقى أنا محسوب عليك اشف لى مريضى أو اقض لى حاجتى ، أو ياسيد يابدوى ، كيف تسكت على من ظلمنى إنك تعلم ظلمه لى ، فاقصف عمره أو فأثبته فى مكانه لا يتحرك وهذا أخبث الشرك وأدله على الجهل الفاضح والبعد عن حظيرة الاسلام

(5) المراد بالوقتين : وقت طلوع الشمس ووقت غروبها . حتى لا تكون العبادة مشوبة بتعظيم الشمس عند طلوعها وغروبها ، كما يفعل عبّادها

(6) الصلاة التى تحرم عند الشروق والغروب وبعد الصبح وبعد العصر

يسجد المشركون فيهما للشمس :

وأما السجود لغير الله فقد قال عليه الصلاة والسلام « لا ينبغي لأحد أن يسجد لأحد الا لله » ولا ينبغي [1] في كلام الله ورسوله انما يستعمل للذي هو في غاية الامتناع كقوله تعالى (وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا) وقوله تعالى (وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنبَغِي لَهُ) وقوله تعالى (وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ وَمَا يَنبَغِي لَهُمْ) وقوله تعالى (مَا كَانَ يَنبَغِي لَنَا أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ)

ومن الشرك بالله تعالى المباين لقوله تعالى (إِيَّاكَ نَعْبُدُ) الشرك به في اللفظ كالحلف بغيره كما رواه الإمام أحمد وأبو داود عنه ﷺ أنه قال « من حلف بغير الله فقد أشرك [2] » صححه الحاكم وابن حبان قال ابن حبان أخبرنا الحسن وسفيان ثنا عبدالله بن عمر الجعفي ثنا عبد الرحمن بن سليمان عن الحسن بن عبد الله النخعي عن سعيد بن عبيدة قال كنت عند ابن عمر رضي الله عنه فحلف رجل بالكعبة فقال

= الى غروب الشمس هي الصلاة التي لا سبب شرعي لها حتى لا يتوهم أن سببها هو تعظيم الشمس عند الشروق والغروب بسبب قرب هذين الوقتين من وقت طلوع الشمس ووقت غروبها أما الصلاة التي لها سبب كالفائتة والضحى وتحية المسجد وسنة الوضوء وغير ذلك فلا تحرم بل تجب في الفائتة وتسن في غيرها

(١) قوله لا ينبغي مبتدأ خبره قوله إنما يستعمل .

(٢) معنى الشرك هنا أن الحالف بغير الله قد جعل لله شريكا في التعظيم لأن الحلف بالشيء يقتضي تعظيمه عظمة تشبه عظمة الله لأن الحلف خاص بالله وقد قال رسول الله ﷺ (من كان حالفا فليحلف بالله أو ليصمت) أي ليسكت فلا يحلف مطلقا .

ابن عمر رضى الله عنه ويحك لاتفعل فانى سمعت رسول الله ﷺ يقول « من حلف بغير الله فقد أشرك » . ومن الاشراك قول القائل لأحد من الناس ماشاء الله وشئت كما ثبت عن النبي ﷺ « أنه قال له رجل ماشاء الله وشئت فقال أجعلتنى لله ندا قل ماشاء الله وحده » هذا مع أن الله تعالى قد أثبت للعبد مشيئة كقوله تعالى (لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ) فكيف بمن يقول أنا متوكل على الله وعليك وأنا فى حسب الله وحسبك وما لى الا الله وأنت : وهذا من الله ومنك وهذا من بركات الله وبركاتك : والله لى فى السماء وأنت لى فى الأرض[1]:

وزن بين هذه الألفاظ الصادرة من غالب الناس اليوم وبين ما نهى عنه من ماشاء الله وشئت ثم انظر أيها أفحش يتبين لك أن قائلها أولى بالبعد من (إِيَّاكَ نَعْبُدُ) وبالجواب[2] من النبي ﷺ لقائل تلك الكلمة وأنه إذا كان قد جعل رسول الله ﷺ ندا فهذا قد جعل من لا يدانيه لله ندا : وبالجملة فالعبادة المذكورة فى قوله تعالى (إِيَّاكَ نَعْبُدُ) هى السجود والتوكل والإنابة والتقوى والخشية والتوبة والنذور والحلف والتسبيح والتكبير والتهليل[3] والتحميد والاستغفار وحلق الرأس[4] خضوعا وتعبداً والدعاء ، كل ذلك محض حق الله تعالى . وفى مسند الإمام أحمد

---

(١) كأن الشيخ المقريزى يعيش بيننا فهذه الألفاظ كثيرة التداول على الألسنة فى هذه الأيام نعوذ بالله من شرها وشر قائلها

(٢) معطوف على قوله بالبعد يعنى أولى بالجواب الخ :

(٣) التهليل والتحميد هو قول الحمد لله ولا إله إلا الله

(٤) هذا من أعمال الحج ، ولم يأمرنا الله بحلق رؤوسنا تعبدا إلا فيه

« أن رجلا أتى به النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم قد أذنب ذنبا فلما وقف بين يديه قال اللهم إنى أتوب اليك ولا أتوب إلى محمد فقال ﷺ عرف الحق لأهله » وأخرجه الحاكم من حديث الحسن عن الأسود ابن سريع وقال حديث صحيح : وأما الشرك فى الإرادات والنيات فذلك البحر الذى لاساحل له وقلّ من ينجو منه فمن نوى بعمله غير وجه الله تعالى فلم يقم بحقيقة قوله (إِيَّاكَ نَعْبُدُ) فان (إِيَّاكَ نَعْبُدُ) هى الحنيفية [1] ملة إبراهيم التى أمر الله بها عباده كلهم ولا يقبل من أحد غيرها وهى حقيقة الإسلام (وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى الآخِرَةِ مِنَ الخَاسِرِينَ) فاستمسك بهذا الأصل وردما [2] أخرجه المبتدعة والمشركون اليه تتحقق معنى الكلمة الالهية » فان قيل المشرك إنما قصد تعظيم جناب الله تعالى وأنه لعظمته لاينبغى الدخول عليه إلا بالوسائط والشفعاء كحال الملوك فالمشرك لم يقصد الاستهانة بجناب الربوبية وإنما قصد تعظيمه وقال (إِيَّاكَ نَعْبُدُ) وإنما أعبد هذه الوسائط لتقربنى اليه وتدخل بى عليه فهو الغاية وهذه وسائل فلم كان هذا القدر موجبا لسخط الله تعالى وغضبه ومخلدا فى النار وموجبا

---

(١) الحنيفية . معناها التنزيهية وقد قال الله تعالى عن إبراهيم « إن إبراهيم كان أمة قانتا لله حنيفا ولم يك من المشركين » أى منزها لله عن الشريك موحداً له

(٢) أى اعرض مايعمله أهل البدع على توحيد الله وإفراده بالعبادة المفهوم من قوله تعالى « إياك نعبد » فإنك تجد الفرق واضحا فكثير من أفعالهم وأقوالهم يؤدى إلى إشراك غير الله مع الله فى الإلهية

لسفك دماء أصحابه واستباحة حريمهم وأموالهم وهل يجوز فى العقل أن يشرع الله تعالى لعباده التقرب اليه بالشفعاء والوسائط فيكون تحريم هذا إنما استفيد بالشرع فقط أم ذلك قبيح فى الشرع والعقل يمنع أن تأتى به شريعة من الشرائع وما السر فى كونه لا يغفر من بين الذنوب كما قال تعالى (إِنَّ اللهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَادُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ) قلنا الشرك شركان ، شرك يتعلق بذات المعبود وأسمائه وصفاته وأفعاله ، وشرك فى عبادته ومعاملته وإن كان صاحبه يعتقد أنه سبحانه وتعالى لا شريك له فى ذاته ولا فى صفاته : وأما الشرك الثانى فهو الذى فرغنا من الكلام فيه وأشرنا اليه الآن وسنشبع الكلام فيه إن شاء الله تعالى :

أما الشرك الأول[1] فهو نوعان ، أحدهما شرك التعطيل[2] وهو أقبح أنواع الشرك كشرك فرعون فى قوله (وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ[3]) وقال (يَاهَامَانُ ابْنِ لِى صَرْحًا لَعَلِّى أَبْلُغُ الأَسْبَابَ أَسْبَابَ السَّمَوَاتِ فَأَطَّلِعَ

(١) الشرك الأول هو الشرك فى ذات الله وأسمائه وصفاته وأفعاله

(٢) التعطيل معناه فى كلام فرعون إنكار ذات الله ، والتعطيل يشمل إنكار الذات وإنكار الصفات والأفعال كتعطيل فرعون والدهريين الذين يقولون مايهلكنا إلا الدهر ، والإقرار بوجودها مع عدم اشتغالها بشىء أصلا كالفلاسفة أو مع اشتغالها ببعض الأشياء دون بعض كالقدرية

(٣) هذا استفهام انكارى أى أين هو رب العالمين ليس هناك شىء اسمه رب العالمين . بدليل قول فرعون فى الآية التى بعد هذه عن موسى « وإنى لأظنه كاذبا »

إِلَى إِلَٰهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا) والشرك والتعطيل متلازمان فكل مشرك معطل وكل معطل مشرك لكن الشرك لا يستلزم أصل التعطيل بل قد يكون المشرك مقرا بالخالق سبحانه وتعالى وصفاته ولكنه معطله حق التوحد :

وأصل الشرك وقاعدته التي يرجع اليها هو التعطيل وهو ثلاثة أقسام أحدها تعطيل المصنوع عن صانعه : الثاني تعطيل الصانع عن كماله الثابت له : الثالث تعطيل معاملته عما يجب على العبد من حقيقة التوحيد : ومن هذا شرك أهل الوحدة [1] : ومنه شرك الملاحدة القائلين بقدم العالم وأبديته وأن الحوادث بأسرها مستندة إلى أسباب ووسائط اقتضت ايجادها ويسمونها العقول والنفوس : ومنه شرك معطلة الأسماء والصفات كالجهمية [2] والقرامطة وغلاة المعتزلة « النوع

(١) هم القائلون بوحدة الوجود كبعض الفلاسفة الاسلاميين القائلين بأن العالم وما فيه جزء من ذات الله أو هو الإله ، حتى قال بعضهم « ما في الجبة إلا الله »

(٢) الجهمية طائفة يخالفون أهل السنة في كثير من الاصول كمسألة الرؤيا في الآخرة وإثبات الصفات ينسبون إلى جهم ـ بفتح فسكون وهو جهم بن صفوان من أهل الكوفة وقد عقد ابن ماجه في أوائل سننه بابا للرد عليهم وجهم من الجبرية الخالصة وهم القائلون بأن الانسان مجبور غير مخير فهو كالريشة في مهب الريح لا يملك من أمره شيئاً وعلى ذلك لا يعاقب على المعصية ولا يثاب على الطاعة ومن نحلته أنه لا يجوز أن يوصف الباري تعالى بصفة يوصف بها خلقه لأن ذلك يقتضي تشبيها فنفى كونه حيا عالما وأثبت كونه قادرا فاعلا خالقاً لأنه لا يوصف شيء من خلقه بالقدرة والفعل

الثانى شرك التمثيل وهو شرك من جعل معه الها آخر كالنصارى فى المسيح واليهود فى عزير والمجوس القائلين بإسناد حوادث الخير الى النور وحوادث الشر الى الظلمة : وشرك القدرية المجوسية مختصر منه وهؤلاء أكثر مشركى العالم وهم طوائف جمة منهم من يعبد أجزاء[1] أرضية ومن هؤلاء من يزعم أن معبوده أكبر الآلهة[2] . ومنهم من يزعم أن الهه من جملة الآلهة : ومنهم من يزعم أنه اذا خصه بعبادته والتبتل اليه أقبل عليه واعتنى به : ومنهم من يزعم أن معبوده الأدنى[3] يقربه الى الأعلى الفوقانى والفوقانى يقربه الى من هو فوقه حتى تقربه تلك الالهة الى الله سبحانه وتعالى فتارة تكثر الوسائط وتارة تقل :

= والخلق . وقد ظهرت بدعته بترمذ وقتله سالم بن أحوز المازنى بمرو فى آخر ملك بنى أمية : وأصل مقالة التعطيل للصفات والأسماء مأخوذ من تلامذة اليهود والمشركين وضلال الصابئين : وأول من حفظ عنه أنه قال هذه المقالة فى الاسلام الجعد بن درهم وأخذها عنه الجهم بن صفوان وأظهرها فنسبت اليه : قيل إن الجعد أخذ مقالته بالتعطيل عن أبان بن سمعان وأخذها أبان عن طالوت بن أخت لبيد بن الأعصم اليهودى الساحر :

(١) كمن يعبد الجبال والأنهار والأشجار والحيوان كالبقر فى الهند والقط والعجل عند قدماء المصريين

(٢) كالشمس والقمر والنجوم

(٣) من الناس من يعبد آلهة عدة بعضها أعلى من بعض ، ويقرب ذلك إلى الذهن ما كان عند العرب فى الجاهلية من اصنام كثيرة كان أكبرها وأعلاها الصنم هُبَل وكان بجوف الكعبة ومعه أصنام أخرى صغيرة وكان هبل الاله الأكبر وغيره من الأصنام آلهة صغيرة

فإذا عرفت هذه الطوائف وعرفت اشتداد نكير الرسول ﷺ على من أشرك به تعالى فى الأفعال والأقوال والارادات كما تقدم ذكره انفتح لك باب الجواب عن السؤال ، فنقول اعلم أن حقيقة الشرك تشبيه الخالق بالمخلوق وتشبيه المخلوق بالخالق : أما الخالق فان المشرك شبه المخلوق بالخالق فى خصائص الإلهية وهى التفرد بملك الضر والنفع والعطاء والمنع فمن علق ذلك بمخلوق فقد شبهه بالخالق تعالى وسوى بين التراب ورب الأرباب فاى فجور وذنب أعظم من هذا

واعلم أن من خصائص الالهية الكمال المطلق من جميع الوجوه الذى لانقص فيه بوجه من الوجوه وذلك يوجب أن تكون العبادة له وحده عقلا وشرعا وفطرة فمن جعل ذلك لغيره فقد شبه الغير بمن لاشبيه له ولشدة قبحه وتضمنه غاية الظلم أخبر من كتب على نفسه الرحمة انه لايغفره أبداً ، ومن خصائص الالهية والعبودية التى لاتقوم إلا على ساق الحب والذل فمن أعطاهما لغيره فقد شبهه بالله سبحانه وتعالى فى خالص حقه وقبح هذا مستقر فى العقول والفطر لكن لما غيرت الشياطين فطر أكثر الخلق واجتالتهم[1] عن دينهم وأمرتهم أن يشركوا بالله مالم ينزل به سلطاناً[2] كما روى عن الله أعرف الخلق به وبخلقه عموا عن قبح الشرك حتى ظنوه حسناً ، ومن خصائص الالهية السجود فمن سجد لغيره فقد شبهه به : ومنها التوكل فمن توكل على غيره

---

(١) اجتالتهم أى حولتهم

(٢) السلطان الحجة والدليل وسميت بذلك لأنها تقهر الخصم على التسليم بمقتضاها كما يقهر السلطان محكومه ويرغمه على التسليم بمطلوبه

فقد شبهه به . ومنها التوبة فمن تاب لغيره فقد شبهه به : ومنها الحلف باسمه فمن حلف بغيره فقد شبهه به : ومنها الذبح له فمن [1] ذبح لغيره فقد شبهه به : ومنها حلق الرأس إلى غير ذلك :

هذا فى جانب التشبيه وأما فى جانب التشبه فمن تعاظم وتكبر ودعى الناس إلى إطرائه [2] ورجائه ومخافته فقد تشبه بالله ونازعه فى فى ربوبيته وهو حقيق بأن يهينه الله غاية الهوان ويجعله كالذر [3] تحت أقدام خلقه : وفى الصحيح عنه ﷺ أنه قال « يقول الله عز وجل العظمة إزارى [4] والكبرياء ردائى فمن نازعنى فى واحد منهما عذبته [5]

---

(١) الذبح لغير الله لا يكون حراما إلا إذا ذكر اسم غير الله على المذبوح بأن قال الذابح باسم اللات أو باسم العزى أو باسم يزدان أو نحو ذلك أما اذا سكت ولم يذكر اسم غير الله فلا يكون ذلك ذبحا لغيره ويكون أكله حلالا

(٢) أى مدحه وتعظيمه

(٣) المراد بالذر التراب

(٤) الازار مايستر نصف الجسم السفلى والرداء مايستر نصفه العلوى ، ومعنى ذلك فى حق الله تعالى أنه مشتمل بالعظمة والكبرياء مختص بهما لا يشاركه فيهما أحد

(٥) الحديث أخرجه مسلم من رواية أبى سعيد الخدرى وأبى هريرة بلفظ « قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم (يقول الله) العز ازاره والكبرياء رداؤه فمن ينازعنى عذبته » ورواه البرقانى فى مستخرجه عن الطريق الذى أخرجه مسلم ولفظه « يقول الله عز وجل العز ازارى والكبرياء ردائى فمن نازعنى شيئا منهما عذبته » . ورواه أيضا أبو داود وابن ماجه وابن حبان فى صحيحه من حديث أبى هريرة بلفظ « قال رسول الله صلى الله عليه

وإذا كان المصور الذى يصنع الصور [1] بيده من أشد الناس عذاباً يوم القيامة لتشبهه بالله فى مجرد الصنعة فما الظن بالمشبه بالله فى الربوبية والإلهية كما قال صلى الله عليه وسلم « أشد الناس عـذاباً يوم القيامة المصورون يقال لهم احيوا ماخلقتم [2] » وفى الصحيح عنه صلى الله عليه

= وآله وسلم قال الله تعالى الكبرياء ردائى والعظمة ازارى فمن نازعنى واحدا منهما قذفته فى النار » : ومعنى نازعنى تخلق بذلك فيصير فى معنى المشارك : قال الخطابى فى المعالم معنى هذا الكلام أن الكبرياء والعظمة صفتان لله سبحانه وتعالى اختص بهما لايشركه أحد فيهما ولا ينبغى لمخلوق أن يتعاطاهما لأن صفة المخلوق التواضع والتذلل : وضرب الرداء والازار مثلا فى ذلك يقول والله أعـلم كما لايشرك الانسان فى ردائه وازاره فكذلك لايشركنى فى الكبرياء والعظمة مخلوق : والله أعلم

(١) الصور المحرمة هى صور ماله روح اذا كانت على هيئة يعيش بها أو كان القصد منها العبادة أو الزلفى الى الله ، أو كانت سبيلا الى الزلفى والعبادة ولو بعد تقادم الزمان أما صور البحار والأنهار والأشجار والمناظر الطبيعية التى تدل على قدرة الله تعالى فليست حراما بل ربما كان لصاحبها الثواب الجزيل اذا نوى بعمله اظهار قدرة الله تعالى وجميل صنعه

(٢) الحديث فى الصحيحين « عن عبد الله بن عمر قال سمعت النبى صلى الله عليه وآله وسلم يقول « ان أشد الناس عذابا يوم القيامة المصورون » ورواه النسائى أيضا : وهذه الرواية لايرد عليها شىء : وفى رواية لمسلم « ان من أشد أهل النار يوم القيامة عذابا المصورون » وعليها يرد الاشكال النحوى من رفع اسم إن والجواب عنه : وفى الباب أحاديث كثيرة تفيد تحريم التصوير وعلة النهى ظاهرة :

وسلم أنه قال : يقول الله عز وجل « ومن أظلم ممن ذهب يخلق كخلقي فليخلقوا ذرة فليخلقوا شعيرة[1] » فنبه بالذرة والشعيرة على ماهو أعظم منهما : وكذلك من تشبه به تعالى في الاسم الذي لاينبغي إلا له كملك الملوك وحاكم الحكام وقاضي القضاة ونحوه وقد ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال « إن أخنع[2] الأسماء عند الله رجل تسمى بشاهان شاه ملك الملوك لامالك إلا الله » وفي لفظ « أغيظ رجل عند الله رجل تسمى ملك الأملاك[3] » وبالجملة فالتشبيه[4] والتشبه

=وقوله احيوا ماخلقتم أي اجعلوه حيوانا ذا روح وهذا الأمر يسمى أمر تعجيز : ومعنى خلقتم قدّرتم وصورتم :

(١) الحديث في الصحيحين مطولا عن أبي هريرة : وقوله « ومن أظلم » أي لا أحد أظلم ممن ذكر حال كونه يخلق أي يصنع : والذرة بفتح الذال المعجمة وتشديد الراء النملة الصغيرة : والغرض تعجيزهم تارة بخلق الجماد وأخرى بخلق الحيوان :

(٢) أخنع أفعل تفضيل من الخنوع وهو الخضوع والذلة ، أي ان أذل اسم وأحقره عند الله شاهان شاه وملك الملوك ونحو ذلك

(٣) هو في صحيح مسلم عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم « قال أن أخنع اسم عند الله عز وجل رجل تسمى ملك الأملاك » زاد ابن أبي شيبة في روايته « لامالك الا الله عز وجل » قال الأشعثي قال سفيان مثل شاهان شاه : وقال أحمد بن حنبل سألت أبا عمرو عن أخنع فقال أوضع :

(٤) التشبيه . هو تشبيه الله تعالى بغيره باعتقاد أن غيره يقدر على فعل شيء مما اختص به ، والتشبه . أن يشبه الشخص نفسه بالمه في بعض الصفات »

هو حقيقة الشرك ولذلك كان من ظن أنه إذا تقرب إلى غيره بعبادة مايقربه ذلك الغير اليه تعالى فانه يخطىء لكونه شبهه به وأخذ مالا ينبغي أن يكون إلا له فالشرك منعه سبحانه وتعالى حقه فهذا قبيح عقلا وشرعا ولذلك لم يشرع ولم يغفر لفاعله .

واعلم أن الذى ظن أن الرب سبحانه وتعالى لايسمع له أو لا يستجيب له إلا بواسطة تطلعه على ذلك أو تسأل ذلك منه فقد ظن بالله ظن السوء فانه إن ظن أنه لايعلم أو لايسمع إلا بإعلام غيره له وإسماعه فلذلك نفى لعلم الله وسمعه وكمال إدراكه وكفى بذلك ذنباً : وإن ظن أنه يسمع ويرى ولكن يحتاج إلى من يلينه ويعطفه عليه فقد أساء الظن بأفضال ربه وبره وإحسانه وسعة جوده ، وبالجملة فاعظم الذنوب عندالله تعالى إساءة الظن ولهذا يتوعدهم فى كتابه على إساءة الظن به أعظم وعيد كما قال تعالى (الظَّانِّينَ[1] بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ

=كالكبرياء والعظمة والتسلط على الناس ، ونفعهم وضرهم لاظهار القدرة على النفع والضرر ، فهذا شرك لأن الكبرياء والعظمة والتسلط والنفع والضرر اختص بها الله جل جلاله

(١) أول هذه الآية (ويعذب المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات الظانين) الآية وقد كان المنافقون والمشركون يظنون بالله ظن السوء فيعتقدون أن الله لن يحقق وعده لرسوله بنصره فى الحرب ، وأن المسلمين سيهزمون وأن الرسول والمؤمنين لن يعودوا إلى أهلهم ، وقد ورد ذلك فى سورة الأحزاب فى قوله تعالى . « وإذ يقول المنافقون والذين فى قلوبهم مرض ماوعدنا الله ورسوله إلا غرورا » وفى سورة الفتح أيضا وهى السورة التى وردت فيها الآية التى نتكلم فيها . فى قوله تعالى « بل ظننتم أن لن ينقلب

وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا) وقال تعالى عن خليله إبراهيم عليه السلام (أَئِفْكًا[1] آلِهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ فَمَا ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ) أى فما ظنكم أن يجازيكم إذا عبدتم معه غيره وظننتم أنه يحتاج فى الاطلاع على ضرورات عباده لمن يكون باباً للحوائج اليه ونحو ذلك : وهذا بخلاف الملوك فانهم محتاجون إلى الوسائط ضرورة لحاجتهم وعجزهم وضعفهم وقصور علمهم عن إدراك حوائج المضطرين : فاما من لا يشغله سمع عن سمع وسبقت رحمته غضبه وكتب على نفسه الرحمة فما تصنع الوسائط عنده ، فمن اتخذ واسطة بينه وبين الله تعالى فقد ظن به أقبح الظن ومستحيل أن يشرعه لعباده بل ذلك يمتنع فى العقول والفطر :

=الرسول والمؤمنون إلى أهليهم ابدا وزين ذلك فى قلوبكم وظننتم ظن السوء وكنتم قوما بورا ، ولكن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ، فاعتقاد المنافقين عدم تحقيق الله وعده وصف له بالنقص ، واعتقاد الشخص أن الله يحتاج إلى وساطة حتى يجيب الدعاء أو يحقق الرجاء وصف له بالنقص أيضا وكلاهما ظن السوء بالله ، وكل من اعتقد فى الله نقصا أو احتياجا إلى الغير حتى يرحم أو يعطى فقد ظن به ظن السوء

(١) هذه الآية وردت على لسان إبراهيم عليه السلام يخاطب قومه الذين كانوا يعبدون الأصنام ، وقد وصف إبراهيم عليه السلام عبادة غير الله بأنها إفك أى كذب وضلال مبين ، ثم قال لقومه فما ظنكم برب العالمين ، استفهام توبيخى أى أتظنون بالله ظن السوء ، فتشركون به غيره لاعتقادكم أنه لا يجيب ما تطلبون من غير مساعد أو وسيط ؟

واعلم أن الخضوع والتأله الذى يجعله العبد لتلك الوسائط قبيح فى نفسه كما قررناه لاسيما إذا كان المجعول له ذلك عبداً للملك العظيم الرحيم القريب المجيب ومملوكا له كما قال تعالى (ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلاً مِنْ أَنفُسِكُمْ هَل لَكُم مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِنْ شُرَكَاءَ فِيمَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنتُم فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُم كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ) أى إذا كان أحدكم يأنف أن يكون مملوكه شريكه فى رزقه فكيف تجعلون لى من عبيدى شركاء فيما أنا منفرد به وهو الالهية التى لاتنبغى لغيرى ولا تصلح لسواى فمن زعم ذلك فما قدرنى حق قدرى ولاعظمنى حق تعظيمى ، وبالجملة فما قدر الله حق قدره من عبد معه من ظن أنه يوصل اليه قال تعالى (يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا) الآية إلى أن قال (مَاقَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ إن الله لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ) وقال تعالى (وَمَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِه وَالأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ) فما قدر القوى العزيز حق قدره من أشرك معه الضعيف الذليل :

واعلم أنك إذا تأملت جميع طوائف الضلال والبدع وجدت أصل ضلالهم راجعا إلى شيئين : أحدهما الظن بالله ظن السوء : ولم يقدروا الرب حق قدره فلم يقدره حق قدره من ظن أنه لم يرسل رسولا ولا

أنزل كتابا بل ترك الخلق سدى وخلقهم عبثا [١] ولا قدره حق قدره من نفى [٢] عموم قدرته وتعلقها بأفعال عباده من طاعتهم ومعاصيهم وأخرجهما عن خلقه وقدرته ولا قدر الله حق قدره أضداد هؤلاء الذين قالوا إنه يعاقب عبده [٣] على مالم يفعله ، بل يعاقبه على فعله سبحانه وتعالى : وإذا استحال فى العقول أن يجبر السيد عبده على فعل ثم يعاقبه عليه فكيف يصدر هذا من أعدل العادلين : وقول هؤلاء شر من أشباه المجوس القدرية الأذلين : ولا قدره حق قدره من نفى رحمته [٤] ورضاه

---

(١) وهؤلاء هم الملاحدة الذين يعتقدون ألا رسل ولا كتب وأن الله اكتفى بخلق الخلق ، وسيعرفه من جاد عقله ، وينكره من أظلمت بصيرته ، ولم يرتب الله على ذلك شيئا تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا

(٢) هؤلاء هو القدرية السابقون الذين يقولون إن العبد يخلق أفعال نفسه كلها أو يخلق الشر والله يخلق الخير .

(٣) هؤلاء هم الجبرية الذين يقولون إن العبد لا اختيار له وأنه كالريشة فى مهب الريح ، يسيره الله كيف يشاء ، فالله هو الذى يوجهه إلى الخير وإلى الشر ، وكلاهما فعل الله والعبد لا فعل له ولا اختيار ، ويترتب على ذلك أن يعذب الله العبد على الشر وهو مجبور عليه ، وقد ردّ عليهم الشيخ المقريزى بقوله « بل يعاقبه على فعله » الخ .

(٤) يريد الشيخ بهذا الصنف المؤولين الذين يؤولون صفات الله التى لا يليق مثلها فى الحوادث بالإله كالرحمة والرضى والغضب والمحبة والعجب والضحك كما ورد فى بعض الأحاديث أن الله يعجب من شاب لا صبوة له ويضحك الله من رجلين يقتتلان ثم يدخلان الجنة ونحو ذلك مما ورد من الصفات وله نظير فى الحوادث وهذا النظير لا يليق بالله ، فقد أولوا هذه الصفات

ومحبته وغضبه وحكمته مطلقا [١] وحقيقة فعله لم يجعل له فعلا اختياريا بل أفعاله منفعلة عنه : ولاقدره حق قدره من جعل له صاحبة وولداً وجعله يحل [٢] فى مخلوقاته أو جعله عين [٣] هذا الوجود : ولا قدره حق قدره من قال إنه رفع أعداء رسوله وأهل بيته [٤] وجعل فيهم الملك ووضع [٥] أولياء رسوله وأهل بيته وهذا يتضمن غاية القدح فى

= وجعلوا الرحمة والرضى والمحبة بمعنى النعيم والغضب والسخط بمعنى العذاب والعجب برفعة مكانة الشاب عندالله ، والضحك بمعنى التجلى عليهما وتنعيمهما ونحو ذلك ، وقد أراد الشيخ بنى هذه الصفات أن تأويلها ينفيها ويثبت بدلها صفات أخرى ومن يفعل ذلك لايكون قدر الله حق قدره ، وإنما يجب إثبات هذه الصفات واعتقاد أنها مخالفة لصفات الخلق .

(١) هؤلاء هم الفلاسفة القائلون إن الله خلق العقول العشرة وتركها تؤثر فى الكون فكل مايحدث فى العالم مفعول لله بواسطة هذه العقول ، وهذا يؤدى الى عـــدم الحكمة والاختيار لأن الحوادث والأفعال تصدر عن العقول صدورا آليا كما يقولون .

(٢) هؤلاء هم الحلوليون الذين يقولون ان الله يحل فى بعض المخلوقات فينقلب المخلوق الى اله وهو رأى باطل كلا حقه ، لأنه يقتضى أن الانسان أو الشجرة التى يحل فيها الاله اله وهذا سخف لايعقل .

(٣) هؤلاء أهل وحدة الوجود القائلون بأن العالم من ذات الاله فكل شىء منه يصدق عليه أنه اله كما سبق من قول بعض الفلاسفة مافى الجبة الا الله

(٤) هؤلاء هم الملحدن المنكرون لوجود الله . يقولون لو كان الله موجودا فكيف ينصر بنى أمية على على ؓ وأهل البيت ، وهم قسم من غلاة الشيعة أدى بهم غلوهم فى التشيع الى الكفر والاثم العظيم .

(٥) أى جعل مكانتهم وضيعة حقيرة

الرب تعالى الله عن قول الرافضة : وهذا مشتق من قول اليهود والنصارى فى قول رب العالمين إنه أرسل ملكا ظالما فادعى النبوة وكذب على الله ومكث زمنا طويلا يقول أمرنى بكذا ونهانى عن كذا ويستبيح دماء أبناء الله وأحبائه والرب تعالى يظهره ويؤيده ويقيم الأدلة والمعجزات على صدقه ويقبل بقلوب الخلق وأجسادهم إليه ويقيم دولته على الظهور والزيادة ويذل أعداءه أكثر من ثمان مائة عام : فوازن بين قول هؤلاء وقول إخوانهم من الرافضة تجد القولين سواء : ولا قدره حق قدره من زعم أنه لا يحيي[1] الموتى ولا يبعث من فى القبور ليبين لعباده الذى كانوا فيه يختلفون وليعلم الذين كفروا أنهم كانوا كاذبين .

وبالجملة فهذا باب واسع والمقصود أن كل من عبد مع الله غيره فانما عبد شيطانا قال تعالى (أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ) . فما عبد أحد أحداً من بنى آدم كائنا من كان إلا وقد وقعت عبادته للشيطان فيستمتع العابد بالمعبود فى حصول غرضه ويستمتع المعبود بالعابد فى تعظيمه له وإشراكه مع الله تعالى وذلك غاية رضى الشيطان ولهذا قال تعالى (وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ[2] قَدِ اسْتَكْثَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ)

---

(١) هؤلاء قسم من الملحدين يعتقدون أن الله خلق الخلق لبيان قدرته ولكنه لا يحييهم بعد موتهم ولا يحاسبهم اكتفاء بإظهار القدرة فى الدنيا .

(٢) الخطاب هنا لشياطين الجن وهم أعوان إبليس الذين يساعدونه فى إغواء الناس وتهيئة سبل الفساد لهم ، ومن الجن مسلمون صالحون يعبدون الله ويتعرضون لاغواء الجن الآخرين المفسدين كما يتعرض لاغوائهم مسلمو

أى من اغوائهم وإضلالهم (وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ مِنَ الإِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الَّذِى أَجَّلْتَ لَنَا قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ[1] خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَاشَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ) فهذه إشارة لطيفة إلى السر الذى لأجله كان الشرك أكبر الكبائر عند الله وأنه لا يغفر بغير التوبة منه وأنه موجب للخلود فى العذاب العظيم وأنه ليس تحريمه قبحه بمجرد النهى عنه فقط بل يستحيل على الله سبحانه وتعالى أن يشرع لعباده عبادة إله غيره كما يستحيل عليه ماينافض أوصاف كماله ونعوت جلاله .

واعلم أن الناس فى عبادة الله تعالى والاستعانة به اقسام أجلها وأفضلها أهل العبادة والاستعانة بالله عليها : فعبادة الله غاية مرادهم : وطلبهم منه أن يعينهم عليها ويوفقهم للقيام بها نهاية مقصودهم ولهذا كان أفضل مايسأل الرب تعالى الإعانة على مرضاته[2] وهو الذى عليه

= الانس فمن أطاع الإغواء دخل فى العصاة المستحقين للعذاب ومن عصمه الله نجا ودخل فى الصالحين الذين يجزون الحسنات ، وقد بين الله تعالى ذلك فى سورة الجن فقال على لسانهم « وأنا منا المسلمون ومنا القاسطون فمن أسلم فأولئك تحروا رشدا وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطبا » والقاسطون الجائرن الحائدون عن الطريق المستقيم وقال تعالى فى آية أخرى من سورة الجن أيضا على لسان الجن «وأنا منا الصالحون ومنا دون ذلك كنا طرائق قددا » أى طرائق مختلفة متشعبة .

(١) مثواكم أى مكان ثوائكم وإقامتكم الدائمة .

(٢) بامتثال الأوامر واجتناب النواهى والحب لطاعته والبغض لمعصيته

النبي ﷺ لمعاذ بن جبل فقال «يامعاذ والله إنى أحبك فلا تدَع أن تقول فى دُبُرِ كل صلاة «اللهم أعنى على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك[1]». فأنفع الدعاء طلب العون على مرضاته تعالى: ويقابل هؤلاء القسم الثانى المعرضون عن عبادته والاستعانة به فلا عبادة لهم ولا استعانة بل إن سأله تعالى أحدهم واستعان به فعلى حظوظه وشهواته والله سبحانه وتعالى يسأله من فى السموات والأرض ويسأله أولياؤه وأعداؤه فيمد هؤلاء وهؤلاء وأبغض خلق الله إبليس ومع هذا أجاب سؤاله [2] وقضى حاجته ومتعه بها ولكن لما لم تكن عونا على مرضاته كانت زيادة فى شقوته وبعده: وهكذا كل من سأله تعالى واستعان به على مالم يكن عونا له على طاعته كان سؤاله مبعدا له عن الله فليتدبر العاقل هذا وليعلم أن إجابة الله لسؤال بعض السائلين ليست لكرامته عليه بل قد يسأله

= وكان من دعاء الرسول ﷺ بعد التحيات «اللهم ارزقنى من اليقين بك مايحببنى فى طاعتك ومن خشيتك مايمنعنى عن معصيتك» ومن دعائه قبل قراءة الفاتحة «اللهم باعد بينى وبين خطاياى كما باعدت بين المشرق والمغرب اللهم نقنى من الخطايا كما ينقى الثوب الأبيض من الدنس، اللهم اغسلنى بالماء والثلج والبرد» يريد ﷺ بغسله بالماء وبالثلج وهو الماء الجامد والبرد وهو الماء المنعقد حبات صغيرة أن ينظفه تمام النظافة من المعاصى وقذارتها.

(١) خرجه أبو داود وأحمد بن حنبل ورواه النسائى بسند قوى على ماقاله ابن حجر فى كتابه بلوغ المراد من أدلة الأحكام.

(٢) هو قوله «رب انظرنى إلى يوم يبعثون» فقال الله تعالى له «فإنك من المنظرين إلى يوم الوقت المعلوم» فلما أجاب الله سؤله قال «فبعزتك لأغوينهم أجمعين إلا عبادك منهم المخلصين».

عبده الحاجة فيقضيها له وفيها هلاكه ويكون منعه منها حماية له [1] وصيانة والمعصوم من عصمه الله والإنسان على نفسه بصيرة :

وعلامة هذا أنك ترى من صانه الله من ذلك وهو يجهل حقيقة الأمر إذا رآه سبحانه وتعالى يقضي حوائج غيره يسيء ظنه به تعالى وقلبه محشو بذلك وهو لا يشعر : وأمارة ذلك حمله على الأقدار وعتابه في الباطن لها ولقد كشف الله تعالى هذا المعنى غاية الكشف في قوله تعالى (فَأَمَّا الإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ كَلَّا) أي ليس كل من أعطيته ونعمته وخولته [2] فقد أكرمته وما ذاك لكرامته عليّ ولكنه ابتلاء مني وامتحان له أيشكرني فأعطيه فوق ذلك أم يكفرني فأسلبه إياه وأحوله عنه لغيره وليس كل من ابتليته فضيقت عليه رزقه وجعلته بقدر لا يفضل عنه فذاك من هوانه عليّ ولكنه ابتلاء وامتحان مني له أيصبر فأعطيه أضعاف مافاته أم يسخط فيكون حظه السخط : وبالجملة فأخبر تعالى أن الإكرام والإهانة لا يدوران على المال وسعة الرزق وتقديره فانه سبحانه وتعالى يوسع على الكافر لا لكرامته ويقتر على المؤمن لا لهوانه عليه وإنما يكرم سبحانه وتعالى من يكرم من عباده بأن يوفقه لمعرفته ومحبته وعبادته واستعانته . فغاية

---

(١) فلا يحزن العبد إذا لم يجبه الله تعالى إلى ماطلب لأنه عالم بكل شيء حكيم فيما يعطي ويمنع ، بل يجب عليه الرضى بما قسمه الله له مع الإيقان بأن الخير فيما اختاره الله (٢) معنى خولته أعطيته وقد ورد ذلك في قوله تعالى « فإذا مس الإنسان ضر دعانا ثم إذا خولناه نعمة منا قال انما أوتيته على علم بل هي فتنة ولكن أكثرهم لا يعلمون »

سعادة الأبد فى عبادة الله والاستعانة به عليها :

القسم الثالث من له نوع عبادة بلا استعانة وهؤلاء نوعان : أحدهما أهل القدر القائلون بأنه سبحانه وتعالى قد فعل بالعبد جميع مقدوره من الألطاف وأنه لم يبق فى مقدوره إعانة على الفعل فانه قد أعانه بخلق الآلات وسلامتها وتعريف الطريق وإرسال الرسول وتمكينه من الفعل فلم يبق بعدها إعانة مقدورة يسأله إياها[1] وهؤلاء مخذولون موكلون إلى أنفسهم مسدود عليهم طريقة الاستعانة والتوحيد : قال ابن عباس رضى الله عنهما الإيمان بالقدر نظام التوحيد فمن آمن بالله وكذب بقدره نقض توحيده : النوع الثانى من لهم عبادة وأوراد ولكن حظهم ناقص من التوكل والاستعانة[2] لم تتسع قلوبهم لارتباط الأسباب بالقدر وأنها بدون المقدور كالموت الذى لا تأثير له بل كالعدم الذى لا وجود له وأن القدر كالروح المحرك لها والمعوّل على المحرك الأول فلم تنفذ بصائرهم من السبب إلى المسبب ومن الآلة إلى الفاعل فقلّ نصيبهم من الاستعانة : وهؤلاء لهم نصيب من التصرّف بحسب

---

(١) يقول هؤلاء إن العبد يخلق أفعال نفسه من الطاعات والمعاصى وهى مخلوقة لله بواسطة إقدار العبد عليها لا مباشرة وعلى ذلك فقد ترك الله العبد بعد أن خلق فيه الآلات ووسائل الفعل وهيأ له سبيله ، وهداه النجدين بإرسال الرسل فالعبد متروك لاختياره وكل فعل يصدر عنه ناشىء من ذاته وبقدرته فلا داعى للاستعانة به على العبادة وترك المعصية لأن الله قد أعانه على ذلك بما أقدره على العمل والترك .

(٢) أى أنهم يفعلون الطاعات ولا يفكرون فى طلب عون الله لهم عليها لعدم ثبات قدمهم فى التوحيد والتوكل .

استعانتهم وتوكلهم ونصيب من الضعف والخذلان بحسب قلة استعانتهم وتوكلهم ولو توكل العبد على الله حق توكله فى إزالة جبل عن مكانه لأزاله :

فان قيل ماحقيقة الاستعانة عملا : قلنا هى التى يعبر عنها بالتوكل[1] وهى حالة للقلب تنشأ عن معرفة الله تعالى وتفرده بالخلق والأمر والتدبير والضر والنفع وأنه ماشاء كان وما لم يشأ لم يكن فتوجب اعتمادا عليه وتفويضاً اليه وثقة به فتصير نسبة العبد اليه تعالى كنسبة الطفل إلى أبويه فيما ينوبه من رغبته ورهبته فلو دهمه ماعسى أن يدهمه من الآفات لم يلتجىء إلى غيرهما : فان كان العبد مع هذا الاعتمادمن أهل التقوى كانت له العاقبة الحميدة (وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ) أى كافيه .

القسم الرابع من له استعانة[2] بلا عبادة وتلك حالة من شهد بتفرد

---

(١) وحقيقة التوكل هى أن يلجأ العبد فى كل أموره صغيرها وكبيرها إلى الله كما يلجأ الطفل إلى أبويه فى كل أموره كما سيأتى للعلامة المؤلف .

(٢) هذا هو المتوكل على الله فى كل أموره المعتقد تفرده بالنفع والضر فيلجأ إليه فى حظوظه الدنيوية حتى ما كان منها معصية . ولكنه لا يفعل الطاعات ، وهذا الصنف من الناس فقد عنصرا من عناصر الايمان وهو العمل لأن الايمان قول باللسان وعمل بالجوارح واعتقاد بالقلب ، والعمل ركن مهم من أركان الايمان من فقده فقد فقد الثواب والنعيم فى الآخرة لأن الله تعالى جعل الثواب على عمل الطاعات ، ولذلك قال الشيخ المقريزى فذلك حظه من دنياه وآخرته .

الله بالضر والنفع ولم يدر بما يحبه ويرضاه فتوكل عليه فى حظوظه فاسعفه بها : وهذا لاعاقبة له سواء كانت أموالا أورياسات أو جاها عند الخلق أونحو ذلك فذلك حظه من دنياه وآخرته :

واعلم أن العبد لا يكون متحققا بعبادة الله تعالى إلا بأصلين ، أحدهما متابعة الرسول ﷺ ، والثانى إخلاص العبودية : والناس فى هذين الأصلين على أربعة أقسام : أهل الإخلاص والمتابعة فأعمالهم كلها لله وأقوالهم ومنعهم وإعطاؤهم وحبهم وبغضهم كل ذلك لله تعالى لايريدون من العباد جزاء ولا شكورا ، عدوا الناس كأصحاب القبور لايملكون ضرا ولا نفعاً ولا موتاً ولاحياتاً ولا نشورا : فانه لايعامل أحداً من الخلق إلا لجهله بالله وجهله بالخلق : والإخلاص هو العمل الذى لايقبل الله من عامل عملا صوابا عاريا منه وهو الذى الزم عباده به إلى الموت قال الله تعالى (لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا) وقال (إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا) وأحسن العمل أخلصه وأصوبه . فالخالص أن يكون لله والصواب أن يكون على وفق سنة رسول الله ﷺ وهذا هو العمل الحسن المذكور فى قوله تعالى (وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ) وهو العمل الصالح فى قوله تعالى (فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا) وهو الذى أمر به النبى ﷺ فى قوله « كل عمل ليس عليه أمرنا فهو رد » [1] وكل عمل بلا متابعة فانه لايزيد

---

(١) أخرجه البخارى ومسلم عن عائشة رضى الله عنها بلفظ قالت

عامله إلا بعدا من الله تعـــالى فان الله تعالى إنما يعبد بأمره لا بالأهواء والآراء .

الضرب الثانى من لا إخلاص له ولا متابعة [1] له وهؤلاء شرار الخلق وهم المتزينون بأعمال الخير يراؤون بها الناس وهذا الضرب يكثر فيمن انحرف عن الصراط المستقيم من المنتسبين إلى الفقه والعلم والفقر والعبادة فانهم يرتكبون البدع والضلال والرياء والسمعة ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا : وفى أضراب هؤلاء نزل قوله تعالى(لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)

=قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « من أحدث فى أمرنا هذا ماليس فيه فهو رد » وفى رواية لمسلم « من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو رد » وأخرجه أيضا أبو داود وابن ماجه : وهذا الحديث أصل عظيم من أصول الاسلام فكل عمل لا يكون عليه أمر الله ورسوله فهو مردود على عامله وكل من أحدث فى الدين مالم يأذن به الله ورسوله فليس من الدين فى شىء هـذا منطوق الحديث ، ومفهومه كل عمل عليه أمره فهو غير مردود : والمراد بأمره ههنا دينه وشرعه : وفيه إشارة إلى أن أعمال العاملين كلهم ينبغى أن تكون تحت أحكام الشريعة فتكون أحـــكام الشريعة حاكمة عليها بأمرها ونهيها فمن كان عمله جاريا تحت أحكام الشريعة موافقا لها فهو مقبول ومن كان خارجا عن ذلك فهو مردود : والله أعلم .

(١) أى لا يخلص عمله لله ولا يتبع رسوله وإنما يتبع هواه فيبتدع ما يأتى على هواه رغبة فى الشهرة وحسن السمعة فى الدنيا أو لكسب المال والجاه والمراكز فى الدولة وقد بين المؤلف بعض هذا الصنف .

الضرب الثالث من هو مخلص فى أعماله لكنها على غير متابعة الأمر كجهال[1] العباد والمنتسبين إلى الزهد والفقر وكل من عبد الله على غير مراده : والشأن ليس فى عبادة الله فقط بل فى عبادة الله كما أراد الله : ومنهم من يمكث فى خلواته تاركا للجمعة ويرى ذلك قربة ويرى مواصلة صوم النهار والقيام بالليل قربة وأن صيام يوم الفطر قربة وأمثال ذلك .

الضرب الرابع مَنْ أعمالهُ على متابعة الأمر لكنها لغير الله تعالى كطاعات المرائين : وكالرجل يقاتل رياء وسمعة وحمية [2] وشجاعة

---

(١) هذا الصنف يخلص لله ولا يعمل إلا لوجهه ولكنه جاهل بالسنة غير فاهم لأحكام الدين فينحرف عن الطريق المستقيم ويعتقد أن ذلك هو الدين ، ومن هذا الصنف فى زماننا هذا من يتركون كثيرا من الصلوات ويقولون الله أعلم بالقلوب ، يظنون أن الدين ايمان بالقلب فقط ، ومن يزيدون فى العبادة المسنونة اعتقادا بأن ذلك خير كمن يصلى بعد العصر نفلا مطلقا فإذا نهى عن ذلك ، قال وهل الصلاة مكروهة هذا خير والزيادة فى الخير لا بأس بها ، ومن ذلك ماذكر المؤلف من مواصلة الصيام وقيام الليل وترك حق البدن والزوجة وقد نهى الرسول ﷺ عن ذلك أبا سلمة رضى الله عنه وقال له « إن لبدنك عليك حقا ولزوجك عليك حقا ولربك عليك حقا فأعط كل ذى حق حقه » ومن ذلك من يتركون أكل الطيبات التى أحلها الله حتى يضعفوا عن العبادة ، ويتركون التمتع بالنساء زهدا وقد نهى الرسول ﷺ عن ذلك وقال ما معناه إنه هو أفضل الخلق وأولاهم بالزهد والعبادة ومع ذلك فهو يصوم ويفطر ويأتى النساء .

(٢) القتال للحمية أن يقاتل الرجل غيرة على أهله أو وطنه أن يستبيحهما

وللمغنم ، ويحج ليقال ويقرأ ليقال ويعلم ويؤلف ليقال [1] فهذه أعمال صالحة لكنها غير مقبولة قال تعالى (وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ) فلم يؤمر الناس إلا بالعبادة على المتابعة والإخلاص فيها : والقائم بهما هم أهل (إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ)

ثم أهل [2] مقام (إِيَّاكَ نَعْبُدُ) لهم فى أفضل العبادة وأنفعها وأحقها بالايثار والتخصيص أربعة طرق وهم فى ذلك أربعة أصناف ، الصنف الأول عندهم أنفع العبادات وأفضلها أشقها على النفوس وأصعبها قالوا لأنه أبعد الأشياء من هواها وهو حقيقة التعبد والأجر على قدر المشقة ورووا حديثا ليس له أصل « أفضل الأعمال أحمزها [3] »

= الأعداء ، والقتال للشجاعة أن يقاتل ليقال إنه شجاع والقتال للمغنم أن يقاتل طمعا فيما يغنمه ويكسبه من الأعداء ، ولا يريد بذلك وجه الله وهذا لافائدة له من قتاله إلا ما أراد ، ويوم القيامة يكله الله إلى غرضه ويقال له كنت تقاتل ليقال فلان شجاع فقد قيل .

(١) أى ليقال فلان حج وفلان قرأ وفلان علم وألف الخ فثواب فاعل هذا ماقيل عنه فى الدنيا وليس له فى الآخرة شيء .

(٢) هم الذين أسلموا وجوهم إلى الله وأخلصوا له قلوبهم ، لايتوكلون إلا عليه ولا يشركون معه غيره فى الحب .

(٣) مثل ذلك ما يردده جهال الناس فى هذه الأيام من قولهم « الثواب على قدر المشقة » ويتحملون فى عبادتهم المشاق التى ليست مطلوبة فى العبادات ولم يأمر بها الله ، كأن يتجشموا المسير مسافات بعيدة ليصلوا فى مسجد بعيد وبجوارهم المساجد كثيرة ، أو يتجشموا مشاق الحج سيراً على

أى أصعبها وأشقها وهؤلاء هم أرباب المجاهدات والجور على النفوس قالوا وإنما تستقيم النفوس بذلك إذ طبعها الكسل والمهاونة والإخلاد إلى الراحة فلا تستقيم إلا بركوب الاهوال وتحمل المشاق ، الصنف الثانى قالوا أفضل العبادات وأنفعها التجرد والزهد فى الدنيا والتقلل

= الأقدام وقد خلق الله السفن والسيارا والطيارات المريحة ومنهم من يتعمد الحج راكبا جملا ولا يركب السيارة لأن فى ركوب الجمل مشقة وأمثال ذلك كثيرة ، وهؤلاء واهمون ، فثوابهم مع الصلاة فى المسجد البعيد كثوابهم فى المسجد القريب ، إلا أن تكون فى البعيد مزية دينية كأن يكون إمام المسجد البعيد أورع من الإمام القريب أو أعلم منه أو أقرأ فيزيد ثوابهم ، أو تكون خطبته أوعظ من خطيب المسجد القريب أو يكون المسجد القريب مقاما على قبر والبعيد خال من القبر أو نحو ذلك فلهم مزيد من الثواب بما تحملوا من المشقة فى الذهاب إلى البعيد ، وكذلك الذى يحج راكبا جملا لا يزيد ثوابه على راكب السيارة ، ومن حج ماشيا لا يزيد ثوابه على الراكب إلا أن يكون نذرَ الحج ماشيا ، فيزيد له ثواب النذر لأنه قربة لله تعالى لها ثواب ، وإنما يكون الثواب على قدر المشقة فيما كلفنا الله به ولم نكلف به أنفسنا فى غير النذر ، كثواب الصيام مع المشقة المحتملة أو مع المرض الذى لا يضره الصوم ولكن يتألم صاحبه منه أثناء الصيام وكالصوم فى السفر فقد أباح الله المريض والمسافر الفطر فاذا صام وتحمل فله ثواب أكثر من الصائم المقيم الصحيح ، لأن الله تعالى يقول « فمن كان منكم مريضا أو على سفر فعدة من أيام أخر » ثم قال بعد ذلك « وأن تصوموا خير لكم إن كنتم تعلمون » فبين أن الصيام مع تحمل المشقة أفضل فيجازى متحمل المشقة بما تحمل فى هذا .

منها غاية الامكان واطراح الاهتمام بها وعدم الاكتراث لما هو منها : ثم هؤلاء قسمان فعوامُّهم ظنوا أن هذا غاية فشمروا اليه وعملوا عليه وقالوا هو أفضل من درجة العلم والعبادة ورأوا الزهد فى الدنيا غاية كل[1] عبادة ورأسها، وخواصهم رأوا هذا مقصودا لغيره وأن المقصود به عكوف القلب على الله تعالى والاستغراق فى محبته والانابة اليه والتوكل عليه والاشتغال بمرضاته فرأوا أفضل العبادات دوام ذكره بالقلب[2] واللسان : ثم هؤلاء قسمان فالعارفون إذا جاء الأمر والنهى بادروا اليه ولو فرقهم وأذهب جمعهم، والمنحرفون منهم يقولون: المقصود من القلب جمعيتـــه فاذا جاء مايفرقه عن الله لم يلتفتوا اليه ويقولون :

يطالب بالأوراد من كان غافلا   فكيف بقلب كل أوقاته ورد

ثم هؤلاء أيضاً قسمان منهم من يترك الواجبات والفرائض لجمعيته : ومنهم من يقوم بهـا ويترك السنن والنوافل ويعلم العلم النافع لجمعيته : والحق أن الجمعيـة حظ القلب : وإجابة داعى الله حق الرب فمن آثر

---

(١) وهؤلاء لم يوفقوا . لأنه يجب على العبد أن يأخذ نصيبه من الدنيا الذى يجعله حيا عاملا فى الحياة ولا يتركها جملة ، وقد قال تعالى لقارون « وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا » وعدم أخذ العبد بنصيبه من الدنيا يفقده مزبة الحياة ويصبح شخصا منعزلا عن الناس ولا تستقيم الدنيا ولا تسير كما أراد الله إلا إذا أخذ كل فرد بنصيبه منها ، وانحراف الناس عن ذلك تعطيل لارادة الله وبعد عن مرضاته .

(٢) مع أخذ نصيبهم من الدنيا

حق نفسه على حق ربه فليس من العبادة فى شيء ، الصنف الثالث رأوا أن أفضل العبادات ما كان فيه نفع متعدّ فرأوه أفضل من النفع القاصر فرأوا خدمة الفقراء والاشتغال بمصالح الناس وقضاء حوائجهم ومساعدتهم بالجاه والمال والنفع أفضل لقوله ﷺ « الخلق عيال الله وأحبهم إلى الله أنفعهم لعياله »[١] قالوا وعمل العابد قاصر على نفسه وعمل النفّاع متعدٍّ إلى الغير فأين أحدهما من الآخر : ولهذا كان فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب : وقد قال ﷺ لعلي « لأن يهدى الله بك رجلا واحدا خير من حمر النعم »[٢] وقال « من دعى إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه من غير أن ينقص من أجورهم شيئا »[٣] وقال « إن الله وملائكته يصلون

---

(١) لا بد مع نفع الناس ومساعدتهم من القيام بالواجبات التى فرضها الله من الصلاة والصيام والزكاة والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وغير ذلك فإذا ترك الشخص هذه الواجبات واشتغل بجلب المصالح للخلق ، كان آثما فيما ترك فاقدا لثوابه مستحقا للعقاب على الترك وقد لا يعادل ثواب نفع الناس عقاب ترك الواجبات فيكون فاعل ذلك مقصرا محسترا وهذا الحديث رواه الطبرانى فى معجمه .

(٢) رواه ابن عبد البر في كتاب جامع بيان العلم وفضله عن سهل بن سعد ورواه الطبراني في المعجم الكبير عن أبى رافع بلفظ «لأن يهدى الله على يديك رجلا خير لك مما طلعت عليه الشمس وغربت» .

(٣) هو فى صحيح مسلم عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم قال « من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئا ومن دعا الى ضلالة كان عليه من الاثم مثل آثام

على معلمي الناس الخير »[1] وقال « إن العالم يستغفر له من في السموات ومن في الأرض حتى الحيتان في البحر والنملة في جحرها » قالوا وصاحب العبادة إذا مات انقطع عمله وصاحب النفع لاينقطع عمله مادام نفعه [2] الذي تسبب فيه : والأنبياء عليهم الصلاة والسلام إنما بعثوا

= من تبعه لاينقص ذلك من آثامهم شيئا » .

(١) الحديث رواه الترمذى عن أبي أمامة مطولا وقال حديث حسن صحيح : ورواه البزار من حديث عائشة مختصرا « قال معلم الخير يستغفر له كل شيء حتى الحيتان في البحر » وقد ورد في مدح العلم والعلماء أحاديث كثيرة تبلغ حـــد التواتر : والمراد بالعلم العلم النافع الذي تظهر آثاره بالمتصف به عملا وليس المراد به علم أكثر أهل الزمان المجرد عن العمل به والاخلاص .

(٢) عدم انقطاع ثواب المتسبب في النفع مقيد بالنفع المستمر بعد موت صاحبه بشرط أن يكون علما ينفع أو صدقة جارية أو سنة حسنة في الدين ، والدليل على ذلك قول الرسول ﷺ « إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث صدقة جارية أو علم ينتفع به أو ولد صالح يدعو له » وقوله ﷺ « من سن سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها الى يوم القيامة ، ومن سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها الى يوم القيامة » وحديث مسلم الذي مر في الصفحة السابقة ، أما النفع المنقطع كالصدقة في حياة الميت فقط ، وكذلك من علم الناس خيرا دنيويا يستمر نفعه بعد موته كمن اخترع السيارة أو الطيارة اذا كان مسلما ، ومن اخترع آلة لقطع الخشب بسرعة أو آلة حاسبة أو نحو ذلك فلا يستمر ثوابه بعد موته بل ينقطع بمجرد الموت .

بالإحسان إلى الخلق وهـدايتهم ونفعهم فى معاشهم ومعادهم لم يبعثوا بالخلوات والانقطاع ولهذا أنـكر النبي ﷺ على أولئك النفر الذين هموا بالانقطاع والتعبد وترك مخالطة الناس : ورأى هؤلاء أن التفرغ لنفع الخلق أفضل من الجمعية على الله بدون ذلك قالوا ومن ذلك العلم والتعليم ونحو هذه الأمور الفاضلة :

الصنف الرابع قالوا أفضل العبادة العمل على مرضاة الرب سبحانه وتعالى وشغل كل وقت بمـــا هو مقتضى ذلك الوقت ووظيفته : فأفضل العبادات فى وقت الجهاد الجهاد وإن آل إلى ترك الأوراد من صلاة الليل وصيام النهار بل من ترك إتمـام صلاة الفرض كما فى حالة الأمن : والأفضل فى وقت حضور الضيف القيام بحقه والاشتغال به : والأفضل فى وقت السحر الاشتغال بالصلاة والقرآن والذكر والدعاء : والأفضل فى وقت الأذان ترك ماهو فيـه من الأوراد والاشتغال بإجابة المؤذن : والأفضل فى أوقات الصلوات الخمس الجد والاجتهاد فى إيقاعها على أكمل الوجوه والمبادرة اليها فى أول الوقت والخروج إلى المسجد وإن بعد : والأفضل فى أوقات ضرورة المحتاج المبادرة إلى مساعدته بالجاه والمـال والبدن : والأفضل فى السفر مساعدة المحتاج وإعانة الرفقة وإيثار ذلك على الأوراد والخلوة : والأفضل فى وقت قراءة القرآن جمعية القلب والهمة على تدبره والعزم على تنفيذ أوامره أعظم من جمعية قلب من جاءه كتاب من السلطان على ذلك : والأفضل فى وقت الوقوف بعرفة الاجتهاد فى التضرع والدعاء والذكر : والأفضل فى أيام عشر ذى الحجـة الاكثار من التعبد لاسيما التـكبير والتهليل

والتحميد وهو أفضل من الجهاد غير المتعين والأفضل فى العشرة الأواخر من رمضان لزوم المساجد والخلوة فيها مع الاعتكاف والإعراض عن مخالطة الناس والاشتغال بهم حتى انه أفضل من الاقبال على تعليمهم العلم وإقرائهم القرآن عند كثير من العلماء: والأفضل فى وقت مرض أخيك المسلم أو موته عيادته وحضور جنازته وتشييعه وتقديم ذلك على خلوتك وجمعيتك: والأفضل فى وقت نزول النوازل وإيذاء الناس لك أداء واجب الصبر مع خلطتك لهم والمؤمن الذى يخالط الناس ويصبر على أذاهم أو إيذائهم أفضل من المؤمن الذى لايخالط الناس ولايصبر على أذاهم: وخلطتهم فى الخير أفضل من عزلتهم فيه وعزلتهم فى الشر أفضل من خلطتهم فيه: فان علم أنه إذا خالطهم أزاله [1] وقلله فخلطتهم خير من اعتزالهم وهؤلاء هم أهل التعبد المطلق والأصناف التى قبلهم أهل التعبد المقيد فمتى خرج أحدهم عن الفرع الذى تعلق به من العبادة وفارقه يرى نفسه كأنه قد نقص ونزل عن عبادته فهو يعبد الله تعالى على وجه واحد وصاحب التعبد المطلق ليس له غرض فى تعبد بعينه يؤثره على غيره بل غرضه تتبع مرضات الله تعالى: إن رأيت العلماء رأيته معهم وكذلك فى الذاكرين: والمتصدقين وأرباب الجمعيه وعكوف القلب على الله فهذا هو الغذاء الجامع للسائر إلى الله فى كل طريق والوافد عليه مع كل فريق: واستحضر ههنا حديث أبى بكر الصديق رضى الله عنه وقول النبى ﷺ بحضوره «هل منكم أحد أطعم اليوم مسكينا قال أبو بكر أنا قال هل منكم أحد أصبح

(١) قوله أزاله وقلله أى الشر المتقدم ذكره قبل:

اليوم صائما قال أبو بكر أنا قال هل منكم أحد عاد اليوم مريضا قال أبو بكر أنا قال هل منكم أحد اتبع اليوم جنازة قال أبو بكر أنا »[1]
الحديث : هذا الحديث روى من طريق عبد الغنى بن أبي عقيل حدثنا نعيم ابن سالم عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال « كان رسول الله ﷺ جالساً فى جماعة من أصحابه فقال من صام اليوم قال أبو بكر أنا قال من تصدق اليوم قال أبو بكر أنا قال من عاد اليوم مريضا قال أبو بكر أنا قال من شهد اليوم جنازة قال أبو بكر أنا قال وجبت لك » يعنى الجنة : ونعيم بن سالم وإن تُكلِّم فيه لكن تابعه سلمة ابن وردان وله أصل صحيح من حديث مالك عن محمد ابن شهاب عن حميد بن عبد الرحمن بن عوف عن أبي هريرة رضي الله عنه « أن رسول الله ﷺ قال من أنفق زوجين فى سبيل الله نودى فى الجنة ياعبد الله هذا خير فمن كان من أهل الصلاة نودى من باب الصلاة ومن كان من أهل الجهاد نودى من باب الجهاد ومن كان من أهل الصدقة دعى من باب الصدقة ومن كان من أهل الصيام دعى من باب الريان فقال

---

(١) الحديث أخرجه ابن خزيمة فى صحيحه وأورده الحافظ عبد العظيم المنذرى فى كتابه الترغيب والترهيب وسكت عنه : ولفظه عن أبي هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم « من أصبح منكم اليوم صائما فقال أبو بكر رضى الله عنه أنا فقال من أطعم منكم اليوم مسكينا فقال أبو بكر أنا فقال من تبع منكم اليوم جنازة فقال أبو بكر أنا فقال من عاد منكم اليوم مريضا فقال أبو بكر أنا فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ما اجتمعت هذه الخصال قط فى رجل إلا دخل الجنة » .

أبو بكر رضى الله عنه يارسول الله ماعلى من يدعى من هذه الأبواب كلها من ضرورة فهل يدعى أحد من هذه الأبواب كلها قال نعم وأرجوا أن تكون منهم » [1] هكذا رواه عن مالك موصولا مسندا عن يحي بن يحي ومعن بن عيسى وعبد الله بن المبارك : ورواه يحي بن بكير وعبد الله بن يوسف عن مالك عن ابن شهاب عن حميد مرسلا : وليس هو عند القعنبي لا مرسلا ولا مسندا : ومعنى قوله « من أنفق زوجين » يعني شيئين من نوع واحد نحو درهمين [2] أو دينارين أو فرسين أو قميصين : وكذلك من صلى ركعتين أو مشى فى سبيل الله تعالى خطوتين أو صام يومين ونحو ذلك : وإنما أراد والله أعلم أقل التكرار وأقل وجوه المداومة على العمل من أعمال البر لأن الاثنين أقل الجمع فهذا [3] كالغيث أين وقع نفع صحب الله بلا خلق وصحب الخلق بلا نفس إذا كان مع الله عزل الخلائق من البين [4] وتخلى عنهم وإذا كان مع خلقه عزل نفسه من الوسط [5] وتخلى عنها فما أغربه بين الناس

---

(١) خرجه البخارى فى صحيحه فى غير موضع : ومسلم والنسائى والترمذى

(٢) ورد فى بعض روايات البخارى مفسرا هكذا « من أنفق زوجين فى سبيل الله درهمين شاتين .

(٣) اسم الإشارة راجع إلى الصنف الرابع العامل فى كل وقت بالأفضل فى ذلك الوقت .

(٤) أى عزل الخلائق وأبعدهم من الوجود بينه وبين الله .

(٥) أى أخرج نفسه من وسط الخلق ولم يفكر فيها وإنما يفكر فى مصالح الناس وجلب النفع ومشاركتهم فى سرائهم وضرائهم وتخفيف مصائبهم لأنه يرى فى ذلك استمرارا لاتصاله بربه ، فهو دائما مع الله يوجد مع الناس بجسمه

وما أشد وحشته منهم وما أعظم أنسه بالله وفرحـــه به وطمأنينته وسكونه اليه :

واعلم أن للناس فى منفعة العبادة وحكمتها ومقصودها طرقا أربعة وهم فى ذلك أربعة أصناف ، الصنف الأول نفاة [1] الحكم والتعليل الذين يردون الأمر إلى نفس المشيئة وصرف الإرادة فهؤلاء عندهم القيام بها ليس إلا لمجرد الأمر من غير أن يكون سببا لسعادة فى معاش ولا معاد ولا سببا لنجاة وإنما القيام بهـا لمجرد الأمر ومحض المشيئة كما قالوا فى الخلق لم يخلق لغاية ولا لعلة هى المقصودة به ولا لحكمة تعود اليه منه وليس فى المخلوق أسباب تكون مقتضيات لمسبباتها وليس فى النار سبب للإحراق ولا فى الماء قوة الإغراق ولا التبريد : وهكذا الأمر عندهم سواء لافرق بين الخلق والأمر ولا فرق فى نفس الأمر بين المأمور والمحظور ولكن المشيئة اقتضت أمره بهذا ونهيه عن هذا من غير أن يقوم بالمأمور صفة تقتضى حسنه ولا بالمنهى عنه صفة تقتضى قبحه [2] . ولهذا الأصل لوازم فاسدة وفروع كثيرة

= ومع ربه بقلبه ، فهو موجود كغير الموجود غريب بين بنى جنسه مستوحش منهم ، معروف عند الله مؤتنس بمناجاته بالقلب وبالعمل الصالح .

(١) نفاة جمع ناف كقضاة جمع قاض . أى الذين ينفون عن أمر الله لعباده بالطاعة ونهيه إياهم عن المعصية الحكمة والسبب ويفعلون ما أمر وينتهون عما نهى لمجرد الأمر والنهى :

(٢) لا بد أن يعتقد المؤمن الحكمة فى أوامر الله ونواهيه ، فيعتقد أنه لايأمر بالعمل إلا لحكمة دنيوية أو أخروية ، ولاينهى عنه إلا لحكمة

وهؤلاء غالبهم لايجدون حلاوة العبادة ولا لذتها ولا يتنعمون بها ولهذا يسمون الصلاة والصيام والزكاة والحج والتوحيد والإخلاص ونحو ذلك تكاليف أى كلفوا بها ولو سمى مدعى محبة ملك الملوك أو غيره مايأمره به تكليفا لم يعد محبا له ، وأول من صدرت عنه هذه المقالة الجعد بن درهم .

الصنف الثانى القدرية [1] النفاة الذين يثبتون نوعا من الحكمة

= دنيوية أو أخروية أو دنيوية وأخروية معا ، وإن كانت حكمة بعض الأوامر والنواهى تخفى علينا لقصر عقولنا عن ادراكها ، ولسنا مكلفين بالوصول الى حكمة كل أمر ونهى ، ولكننا مكلفون باعتقاد الحكمة فى أمر الله ونهيه ، ولو خلت أفعال الله عن الحكمة لكانت عبثا والله تعالى منزه عن العبث .

(١) اعلم أن أول بدعة ظهرت فى الاسلام هى بدعة التشيع للامام على كرم الله وجهه وأنه أولى بالخلافة من أبى بكر وعمر وعثمان . وبدعة الخوارج ، وهى عدم اعترافهم بأحد الخليفتين على ومعاوية والخروج عن طاعتهما ووجوب قتلهما . وبدعة القدر ، وهى خلق العبد لأفعاله كلها أو بعضها وأنه يستحق الثواب بعمله الطاعة ويستحق العقاب بعمل المعصية ولا فضل لله فى ذلك بل يجب عليه ، وبدعة الارجاء ، وهى أن الناس مرجئون الى مشيئة الله ان شاء عفا عنهم وإن شاء عذبهم . وأول من تكلم فى القدر معبد الجهنى وهذه البدع ظهرت فى القرن الثانى والصحابة موجودون : وقد أنكروا على أهلها : ثم ظهرت بدعة الاعتزال ولم يزل المسلمون على النهج الأول ولزوم ظاهر السنة وما كان عليه الصحابة رضى الله عنهم الى أن حدثت الفتن بين المسلمين والبغى على أئمة الدين وظهر اختلاف الآراء والميل الى البدع

والتعليل لايقوم بالرب ولا يرجع اليه بل يرجع لمحض مصلحة المخلوق ومنفعته فعندهم أن العبادات شرعت أثمانا لما يناله العباد من الثواب والنعيم : وأنها بمنزله استيفاء الأجير أجره قالوا ولهذا يجعلها سبحانه وتعالى عوضا كقوله (وَنُودُوا أَنْ تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ [٢]) (هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ) (ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا

= والأهواء وكثرت المسائل والواقعات والرجوع الى العلماء فى المهمات : فاشتغلوا بالنظر والاستدلال والاستنباط والنتائج وتمهيد القواعد : وإنتاج القضايا والفوائد : وأخذوا فى التبويب والتفصيل والترتيب والتأصيل : فأسست فرقة المعتزلة قواعد الخلاف : ونهجت منهج الفرقة والانحراف وكان أول من إعتزل عن مجلس سيد التابعين الحسن البصرى واصل بن عطاء رئيس الطائفة المعتزلة : ومذهب السلف هو المذهب المنصور والحق الثابت المأثور : وأهله هم الفرقة الناجية والطائفة المرحومة التى هى بكل خير فائزة ولكل مكرمة راجية من الشفاعة والورود على الحوض ورؤية الحق وغير ذلك : فمذهب السلف حق بين باطلين : وهدى بين ضلالين : قال العلامة ابن تيمية : مذهب السلف أنهم يصفون الله تعالى بما وصف به نفسه وبما وصفه به رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من غير تحريف ولا تعطيل : ومن غير تكييف ولا تمثيل . فالمعطل يعبد عدما : والممثل يعبد صنما : والمسلم يعبد رب الأرض والسماء

(٢) هذه الآية فى سورة الأعراف وورد فى سورة الزخرف أيضا آية أخرى مثلها وهى « وتلك الجنة التى أورثتموها بما كنتم تعملون » وسيذكرها المؤلف بعد ذلك

كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ) (إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ) وفى الصحيح « إنما هى أعمالكم أحصيها عليكم ثم أوفيكم إياها » قالوا وقد سماها جزاءاً وأجراً وثواباً لأنه شيء يثوب إلى العامل من عمله أى يرجع اليه : قالوا ويدل عليه الموازنة فلولا تعلق الثواب بالأعمال عوضا عليها لم يكن للموازنة معنى : وهاتان الطائفتان متقابلتان : فالجبرية لم تجعل للأعمال ارتباطا بالجزاء ألبتة وجوزت أن يعذب الله من أفنى عمره فى الطاعة وينعّم من أفنى عمره فى مخالفته وكلاهما سواء بالنسبة اليه والكل راجع إلى محض المشيئة ، والقدرية أوجبت عليه سبحانه وتعالى رعاية المصالح وجعلت ذلك كله بمحض الأعمال وأن وصول الثواب إلى العبد بدون عمله فيه تنقيص باحتمال منة الصدقة عليه بلا ثمن فجعلوا تفضله سبحانه وتعالى على عبده بمنزلة صدقة العبد على العبد وإعطائه مايعطيه أجرة على عمله أحب إلى العبد من أن يعطيه فضلا منه بلا عمل ولم يجعلوا للأعمال تأثيراً فى الجزاء ألبتة والطائفتان منحرفتان عن الصراط المستقيم وهو أن الأعمال أسباب موصلة إلى الثواب : والاعمال الصالحات من توفيق الله وفضله وليست قدراً لجزائه وثوابه بل غايتها إذا وقعت على أكمل الوجوه أن تكون شكراً على أحد الاجزاء القليلة من نعمه سبحانه وتعالى فلو عذب أهل سمواته وأهل أرضه لعذبهم وهو غير ظالم ولو رحمهم لكانت رحمته لهم خيراً من أعمالهم : وتأمل قوله تعالى (وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ) مع قوله ﷺ « لن يدخل أحد

منكم الجنة بعمله »[1] تجد الآية تدل على أن الجنان بالاعمال والحديث ينفي دخول الجنة بالاعمال ولا تنافي بينهما لان توارد النفي والاثبات ليس على محل واحد فالمنفي باء الثمنية[2] واستحقاق الجنة بمجرد الاعمال، رداً على القدرية المجوسية التي زعمت أن الفضل بالثواب ابتداء متضمن لتكدير المنة. والباء المثبتة التي وردت في القرآن هي باء السببية [3] ردا على القدرية

---

(١) الحديث في الصحيحين. ولفظ البخاري عن أبي هريرة قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول « لن يدخل أحدا عمله الجنة، قالوا ولا أنت يارسول الله، قال: ولا أنا الا أن يتغمدني الله بفضل ورحمة، فسددوا ولا يتمنين أحدكم الموت اما محسنا فلعله أن يزداد خيرا واما مسيئا فلعله أن يستتيب » فمذهب أهل السنة أنه لا يثبت بالعقل ثواب ولا عقاب بل ثبوتهما بالشريعة حتى لو عذب الله تعالى جميع المؤمنين كان عدلا منه ولكنه أخبر بأنه لا يفعل بل يغفر المؤمنين ويعذب الكافرين. وقد روى أبو داود وابن ماجه من حديث أبي بن كعب في ذكر القدر (وفيه) « لو أن الله عذب أهل سمواته وأرضه لعذبهم وهو غير ظالم لهم ولو رحمهم كانت رحمته خيرا لهم » الحديث. والله أعلم

(٢) أي الباء التي تجعل مابعدها ثمنا لما قبلها، فقوله ﷺ « لن يدخل أحد منكم الجنة بعمله »، معناه لا يدخل أحد منكم الجنة وتكون الجنة ثمنا لعمله وأجرا بحيث يجب دفع الثمن اذا عمل العمل

(٣) المراد بباء السببية في القرآن الباء التي تجعل مابعدها سببا لما قبلها كالباء في قوله تعالى « أدخلوا الجنة بما كنتم تعملون »، وقوله تعالى « وتلك الجنة التي أورثتموها بما كنتم تعملون » المعنى أن العمل سبب الجنة والله تعالى هو الذي تفضل بإعطاء المسبب وهو الجزاء وهو الذي وفق العاملين

الجبرية الذين يقولون لاارتباط بين الأعمال وجزائها ولاهى أسباب لها وإنما غايتها أن تكون أمارة [1] :

والسنة النبوية هى أن عموم مشيئة الله وقدرته لا تنافى ربط الأسباب بالمسببات وارتباطها بها : وكل طائفة من أهل الباطل تركت نوعا من الحق فانها ارتكبت لأجله نوعا من الباطل بل أنواعا ، فهدى الله أهل السنة لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه :

الصنف الثالث الذين زعموا أن فائدة العبادة رياضة النفوس واستعدادها لفيض العلوم والمعارف عليها وخروج قواها من قوى النفس السَّبُعية والبهيمية فلو عطلت العبادة لالتحقت بنفوس السباع والبهائم فالعبادة تخرجها إلى مشابهة العقول فتصير قابلة لانتقاش صور المعارف فيها : وهذا يقوله طائفتان : إحداهما من يقرب إلى الإسلام والشرائع من الفلاسفة القائلين بقدم العالم وعدم الفاعل المختار : والطائفة الثانية من تفلسف من صوفية الإسلام ويقرب إلى الفلاسفة فانهم يزعمون أن العبادات رياضات لاستعداد النفوس للمعارف العقلية ومخالفة العوائد . ثم من هؤلاء من لا يوجب العبادة إلا بهذا المعنى فاذا حصل لها ذلك بقى متحيرا فى لفظ أوراده والاشتغال بالوارد منها : ومنهم من يوجب القيام بالأوراد وعدم الإخلال بها ، وهم صنفان

= للسبب وان كان لله حق عدم الجزاء على العمل ولكنه لا يفعل .

(١) أى علامة على ما أراده الله من الجزاء لفاعل الخير وليست سببا فى الجزاء .

أيضاً : أحدهما من يقول بوجوبها حفظا للقانون وضبطا للناموس[1] : والآخرون يوجبونها حفظا للوارد وخوفا من تدرج النفس بمفارقتها إلى حالها الاولى من البهيمية : فهذه نهاية أقدامهم فى حكمة العبادة وماشرعت لأجله ولا تكاد تجد فى كتب المتكلمين على طريق السلوك غير طريق من هذه الطرق الثلاث أو مجموعها :

والصنف الرابع هم القائلون بالجمع بين الخلق والأمر والقدر والسبب فعندهم أن سر العبادة وغايتها مبنى على معرفة حقيقة الإلهية ومعنى كونه سبحانه وتعالى إلها أن العبادة موجب الإلهية وأثرها ومقتضاها وارتباطها كارتباط متعلق الصفات بالصفات وكارتباط المعلوم بالعلم والمقدور بالقدرة : والاصوات بالسمع : والاحسان بالرحمة : والإعطاء بالجود : فعندهم من قام بمعرفتها على نحو الذى فسرناها به لغة وشرعا مصدرا وموردا استقام له معرفة حكمة العبادات وغايتها به وعلم أنها هى الغاية التى خلقت لها العباد ولها أرسلت الرسل وأنزلت الكتب وخلقت الجنة والنار : وقد صرح سبحانه وتعالى بذلك فى قوله (وَمَا خَلَقْتُ الجِنَّ وَالإنْسَ إلاَّ لِيَعْبُدُونِ) فالعبادة هى التى ماوجدت الخلائق كلها إلا لاجلها كما قال تعالى (أَيَحْسَبُ الإنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى) أى مهملا [2] : قال الشافعى رحمه

---

(١) أى للسنة الالهية التى يجرى عليها الكون

(٢) أى لا يكلف بواجبات ولا ينهى عن محظورات فيكون كالحيوان الاعجم الذى لم يكلف بشىء :

الله لايؤمر ولا ينهى : وقال غيره لايثاب ولا يعاقب ، وهما تفسيران صحيحان فان الثواب والعقاب مترتبان على الامر والنهى والامر والنهى هو طلب العبادة وإرادتها . وحقيقة العبادة امتثالها : ولهذا قال تعالى (وَيَتَفَكَّرُونَ[1] فِى خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَاخَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً) وقال تعالى (وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إلاَّ بِالحَقّ) (وَخَلَقَ اللهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ) فاخبر الله تعالى أنه خاق السموات والأرض بالحق المتضمن أمره ونهيه وثوابه وعقابه : فاذا كانت السموات والارض إنما خلقتا لهذا وهو غاية الخلق فكيف يقال إنه لاغاية له ولا حكمة مقصودة أو إن ذلك بمجرد استئجار العمال حتى لا يتكدر عليهم الثواب بالمنة أولمجرد استعداد النفوس للمعارف العقلية وارتياضها لمخالفة العوائد :

وإذا تأمل اللبيب الفرق بين هذه الأقوال وبين مادل عليه صريح الوحى علم أن الله تعالى إنما خلق الخلق لعبادته الجامعة لكمال محبته مع الخضوع له والانقياد لأمره . فأصل العبادة محبة الله بل إفراده تعالى بالمحبة فلا يحب معه سواه وإنما يحب مايحبه لأجله وفيه كما يحب أنبياءه

---

(١) وردت هذه الآية فى سورة آل عمران فى وصف أولى الألباب أى أصحاب العقول الذين يعرفون الله حق معرفته ويتفكرون فى خلقه قال تعالى « ان فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون فى خلق السموات والأرض ربنا ماخلقت هذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النار »

ورسله وملائكته لأن محبتهم من تمام محبته وليست كمحبة من اتخذ من دونه أندادا يحبهم كحبه : وإذا كانت المحبة له هى حقيقة عبوديته وسرها فهى إنما تتحقق باتباع أمره واجتناب نهيه فعند اتباع الأمر والنهى تتبين حقيقة العبودية والمحبة : ولهذا جعل سبحانه وتعالى اتباع رسوله ﷺ علما [1] عليها وشاهدا لها كما قال تعالى (قُلْ إن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ اللهُ) فجعل اتباع رسوله مشروطاً بمحبتهم لله تعالى وشرطا لمحبة الله لهم ووجود المشروط بدون تحقق شرطه ممتنع : فعلم انتفاء المحبة عند انتفاء المتابعة للرسول : ولا يكفى ذلك حتى يكون الله ورسوله أحب اليه مما سواهما : ومتى كان عنده شيء أحب اليه منهما فهو الإشراك الذى لا يغفره الله : قال تعالى (قُلْ إنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إلَيْكُمْ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِىَ اللهُ بِأَمْرِهِ وَاللهُ لَا يَهْدِى الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ) وكل من قدم قول غير الله على قول الله أوحكم به أو حاكم اليه فليس ممن أحبه : لكن قد يشتبه الأمر على من يقدم قول أحد أو حكمه أو طاعته على قوله ظنا منه أنه لا يأمر ولا يحكم ولا يقول إلا ما قال الرسول ﷺ فيطيعه ويحاكم اليه ويتلقى أقواله كذلك فهذا معذور إذا لم يقدر على غير ذلك :

---

(١) أى دليلا عليها

وأما إذا قدر على الوصول إلى الرسول ﷺ وعرف أن غير من اتبعه أولى به مطلقاً أو فى بعض الأمور كمسئلة معينة ولم يلتفت إلى قول الرسول ﷺ ولا إلى من هو أولى به فهذا يخاف عليه : وكل مايتعلل به من عدم العلم أوعدم الفهم أو عدم إعطاء آلة الفقه فى الدين أو الاحتجاج بالأشباه والنظائر أو بأن ذلك المتقدم كان أعلم منى بمراده ﷺ فهذه كلها تعللات لاتفيد :

هذا مع الإقرار بجواز الخطأ على غير المعصوم إلا أن ينازع فى هذه القاعدة فتسقط مكالمته وهذا هو داخل تحت الوعيد فان استحل مع ذلك ثلب [1] من خالفه وقرض [2] عرضه ودينه بلسانه وانتقل من هذا إلى عقوبته أو السعى فى أذاه فهو من الظلمة المعتدين ونواب المفسدين .

واعلم أن العبادة أربع قواعد وهى التحقيق بما يحب الله ورسوله ويرضاه وقيام ذلك بالقلب واللسان والجوارح فالعبودية اسم جامع لهذه المراتب الأربع : فاصحاب العبادة حقا هم أصحابها . فقول القلب هو اعتقاد ما أخبر الله تعالى عن نفسه وأخبر رسوله عن ربه من أسمائه وصفاته وأفعاله وملائكته ولقائه وما أشبه ذلك ، وقول اللسان الإخبار عنه بذلك والدعاء اليه والذب [3] عنه وتبيين بطلان البدع

---

(١) أى ذمه

(٢) أى التكلم فى عرضه ودينه بما يمزقه كما يمزق القارض المقروض

(٣) أى الدفاع عنه

المخالفة له والقيام بذكره تعالى وتبليغ أمره : وعمل القلب كالمحبة له والتوكل عليه والإنابة والخوف والرجاء والإخلاص والصبر على أوامره ونواهيه وإقراره والرضا به وله وعنه والموالاة فيه والمعاداة فيه والإخبات اليه والطمأنينة ونحو ذلك من أعمال القلوب التى فرضها آكد من فرض أعمال الجوارح ومستحبها إلى الله تعالى أحب من مستحب أعمال الجوارح . وأما أعمال الجوارح فكالصلاة والجهاد ونقل الاقدام إلى الجمعة والجماعات ومساعدة العاجز والإحسان إلى الخلق ونحو ذلك : فقول العبد فى صلواته (إِيَّاكَ نَعْبُدُ) التزام أحكام هذه الأربعة وإقرار بها : وقوله (وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ) طلب الإعانة عليها والتوفيق لها : وقوله (اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ) متضمن للأمرين على التفصيل وإلهام القيام بهما وسلوك طريق السالكين إلى الله تعالى والله الموفق بمنه وكرمه والحمد لله وحده وصلى الله على من لانبي بعده وعلى آله وصحبه ووارثيه وحزبه .

تم الكتاب والحمد لله أولا وآخرا

﴿ فائدة ﴾

قد تقدم للمؤلف المقريزى كلام فى حلق الرأس وأجمل القول فى ذلك ولما كان الحكم فى ذاته فيه تفصيل أحببنا أن نذكر هنا ماأورده الحافظ العلامة شمس الدين ابن القيم فى كتابه زاد المعاد فى هدى خير العباد : قال فى كتاب الطب من الجزء الثانى فى علاج القمل الذى فى الرأس وإزالته . وحلق الرأس ثلاثة أنواع أحدها نسك وقربة والثانى بدعة وشرك والثالث حاجة ودواء فالأول الحلق فى أحد النسكين الحج والعمرة ، والثانى حلق الرأس لغير الله سبحانه وتعالى كما يحلقها المريدون لشيوخهم فيقول أحدهم أنا حلقت رأسى لفلان وأنت حلقته لفلان وهذا بمنزلة أن يقول سجدت لفلان فان حلق الرأس خضوع وعبودية وذل ولهذا كان من تمام الحج حتى إنه عند الشافعى رحمه الله تعالى ركن من أركانه لايتم إلا به فإن وضع النواصى بين يدى ربها خضوع لعظمته وتذلل لعزته وهو من أبلغ أنواع العبودية : ولهذا كانت العرب إذا أرادت إذلال الأسير منهم وعتقه حلقوا رأسه وأطلقوه : فجاء شيوخ الضلال والمزاحمون للربوبية الذين أساس مشيختهم على الشرك والبدعة فارادوا من مريديهم أن يتعبدوا لهم فزيّنوا لهم حلق رؤوسهم لهم كما زينوا لهم السجود لهم وسموه بغير اسمه وقالوا هو وضع الرأس بين يدى الشيخ : ولعمر الله إن السجود لله هو وضع الرأس بين يديه سبحانه وتعالى وزينوا لهم أن ينذروا لهم ويتوبوا لهم ويحلفوا بأسمائهم :

وهذا هو اتخاذهم أربابا من دون الله تعالى (مَاكَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ) وأشرف العبودية عبودية الصلاة وقد تقاسمها الشيوخ والمتشبهون بالعلماء والجبابرة فأخذ الشيوخ منها أشرف مافيها وهو السجود : وأخذ المتشبهون بالعلماء الركوع فاذا لقى بعضهم بعضاً ركع له كما يركع المصلى لربه سواء وأخذ الجبابرة منهم القيام فيقوم الأحرار والعبيد على رؤسهم عبودية لهم وهم جلوس ، وقد نهى رسول الله ﷺ عن هذه الأمور الثلاثة على التفصيل فتعاطيها مخالفة صريحة له . فنهى عن السجود لغير الله وقال « لا ينبغى لأحد أن يسجد لأحد » وأنكر على معاذ لما سجد له وقال « مه[1] » وتحريم هذا معلوم من دينه ضرورة ، وتجويز من جوزه لغير الله مراغمة لله ورسوله وهو من أبلغ أنواع العبودية فاذا جوز هذا المشرك هذا النوع اليسير فقد جوز عبودية غير الله : وقد صح أنه قيل له « الرجل يلقى أخاه أينحنى له قال لا قال أيلزمه ويقبله قال لا قيل أيصافحه قال نعم » وأيضا فالانحناء عند التحية سجود ، ومنه قوله تعالى (وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا) أى منحنين وإلا فلا يمكن الدخول على الجباه ،

---

(١) كلمة زجر بمعنى لا تفعل

وصح عنه النهى عن القيام وهو جالس كما يعظم الأعاجم بعضها بعضا[1] حتى منع ذلك فى الصلاة وأمرهم إذا صلى جالسا أن يصلوا جلوسا وهم أصحاء لا عذر لهم لئلا يقوموا على رأسه وهو جالس[2] مع أن قيامهم لله فكيف إذا كان القيام تعظيما وعبودية لغيره سبحانه وتعالى :

والمقصود أن النفوس الجاهلة الضالة أسقطت عبودية الله سبحانه وتعالى وأشركت فيها من تعظمه من الخلق فسجدت لغير الله وركعت له وقامت بين يديه قيام الصلاة وحلفت بغيره ونذرت لغيره وحلقت لغيره وذبحت لغيره وطافت بغير بيته وعظمته بالحب والخوف والرجاء والطاعة كما يعظم الخالق بل أشد وسوّت من تعبده من المخلوقين برب العالمين .

هؤلاء هم المضادون لدعوة الرسل وهم الذين بربهم يعدلون وهم

---

(١) الحديث رواه أبو داود وابن ماجه : قال الحافظ عبد العظيم المنذرى واسناده حسن أبو غالب فيه واسمه حزور ويقال نافع ويقال سعيد ابن الحزور فيه كلام طويل ، والغالب عليه التوثيق وقد صحح له الترمذى وغيره : اه : ورواه أيضا الترمذى فى الشمائل : وفى مشروعية القيام للناس خلاف والصحيح التفصيل والجمع بين الأحاديث . وقد ألف الامام النووى فى ذلك رسالة وذكرها صاحب المدخل فى كتابه وتعقبه فى كثير منها ورد كلامه فى جواز القيام فعليك بمطالعته فانه يغنيك :

(٢) أخرجه مسلم فى صحيحه من حديث أبى الزبير عن جابر « أنهم لما صلوا خلفه قعودا قال فلما سلم قال ان كدتم انفا تفعلون فعل فارس والروم يقومون على ملوكهم وهم قعود فلا تفعلوا »

الذين يقولون وهم فى النار مع آلهتهم يختصمون (تَاللَّهِ إنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ إذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ) وهم الذين قال فيهم (وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ) وهـــذا كله من الشرك والله لايغفر أن يشرك به . والله أعلم .

﴿ تنبيه ﴾

سقط فى صفحة ٤٨ فى التعليق رقم ٢ بعد كلمة سعد « ورواه » فيكون نظم الكلام هكذا « ورواه الطبرانى فى المعجم الكبير »

فهرس تجريد التوحيد

صفحة

صفحة

صفحة

﴿ تم الفهرس ﴾